رحلات

@keketab_n

14.9.2015

نديم غورسيل

سبعة دراويش

جغرافيّة الصوفيّة الأناضوليّة

مع مقدمة غورسيل للطبعة العربيّة

ترجمة
أحمد عثمان

تقديم
غرهاردت شفايتسر



رحلات

نديم غورسيل

سبعة دراويش

جغرافيّة الصوفيّة الأناضوليّة

ترجمة: أحمد عثمان

تقديم: غرهاردت شفايتسر



سبعة دراويش

جغرافية الصوفيّة الأناضوليّة

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
٢٠١٢/٥/١٧١٩

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

ISBN 978-9957-09-514-7 (ردمك)

هذه هي الترجمة الكاملة لكتاب Nadim Gürsel
Sept derviches

سبعة دراويش : جغرافيّة الصوفيّة الأناضولية

نديم غورسيل (كاتب من تركيا) ترجمة: أحمد عثمان (مصر)

الطبعة الأولى : 2012



أزمنة للنشر والتوزيع
تلفاكس : 5522544
ص.ب: 950252 عمّان 11195
شارع الشريف ناصر بن جميل ، عمارة 55 (الدوحة) ، ط4
info@azminah.com
info@azminah.net
Website:http://www.azminah.com

لوحة الغلاف : سارة شمة (سوريا)

تصميم الغلاف : أزمنة (إلياس فركوح)

الترتيب والأخراج الداخلي : أزمنة (نسرين العجو)

الطباعة : مطابع الدار العربية للعلوم / بيروت

تاريخ الصدور : حزيران/ يونيو 2012

مقدمة الطبعة العربية
رحلة الى المرتفعات البكتاشية في الآناضول

نديم غورسيل

في بداية عام 2000، قمت بأكثر من رحلة في تركيا لكي أكتشف ما أطلقتُ عليه «سبعة دراويش» (Yedi Dervisler): جغرافية الصوفية الأناضولية. يتعلق الأمر، في الواقع، باقتفاء آثار «الشيوخ المؤسسين» للطريقة الدينية، البكتاشية (وريثة القلندرية التي بدأت في الانتشار في الأناضول بدءًا من القرن الثالث، ثم في روملِيا مع الفتح العثماني)، وذلك بالذهاب إلى المزارات لملاحظة سلوك المريدين، وكذا لدراسة الحيوات الأسطورية للوجوه البارزة في الطريقة: حاج بكتاش ولي في الأناضول الوسطى، عبد الله موسى وقايغوسوز عبد الله في جبال طوروس، وجيكلي بابا في سفح جبل أولوداغ قرب بورصة. بتمويل من مجلة «أطلس»، وبرفقة مصور، تُعتبر هذه الرحلات مناسبة مهمة لتعميق معارفي حول الصوفية، والتي كان يثير بُعدها الشعري اهتمامي حتى هذه اللحظة. في الوقت نفسه، تمكنتُ من زيارة «التكية» الخاصة بكل شخصية من هذه الشخصيات، ووصفتُ الأماكن بأحداثها ووقائعها كما حكتها السِيَر التاريخية التي حررها مريدينهم في وقت لاحق، والتي تُمثّل المصادر الرئيسية للمعلومات عنهم.

يُمثّل هذا الاكتشاف للعالم الصوفي والشعري، الذي يُمكننا التعرف عليه عبر نصي الذي يتبدّى كرحلة ذات مرجعية وثائقية متماسكة ومتنوعة، نوعاً من الرؤية. وهكذا، وبتحرير انطباعاتي وددتُ أن أتقاسم مع القارئ شيئاً من الحساسية دون أن أُهمل الأبحاث التي عَرَفَت نجاحاً كبيراً في تركيا، وبالتحديد لدى قطاع كبير معنيٌّ بالنقاش الذي يجري حالياً حول التوفيقية العلوية–البكتاشية.

وإني هنا أعبر عن سعادتي لتمكن قُرّاء العربية، بعد قرائي الأتراك والألمان والفرنسيين، وبترجمة الصديق أحمد عثمان، من الاطلاع على هذا الكتاب.



تاريخياً، لا نعرف الكثير عن الحاج بكتاش؛ إذ لا يتوفر أي شاهد عيان يشير إليه، حتى أن اسمه غير مذكور في كتابات معاصريه. وبحسب الوان جلبي، مؤلف «المناقب القدسية في المناصب الأنسية»[1]، المكتوب في القرن الرابع عشر الميلادي والذي يسرد حياة جده، بابا إلياس، الذي شُنق على أسوار آماسيا في عام 1240 لقيامه بتحريض القبائل التركمانية ضد الدولة السلجوقية، فإن الحاج بكتاش كان مريداً لهذا الأخير دون أن ينضم إلى حركة التمرد التي سحقتها جيوش غياث الدين كيخسرو الثاني (1237 - 1246) في ماليا. وهناك مصدر قديم آخر يتحدث كثيراً وبالتفصيل عن الحاج بكتاش، وهو تاريخ عاشق باشا زاده: «تواريخ آل عثمان»[2]، المكتوب في القرن الخامس عشر. إستناداً إلى هذا العمل، وأيضاً الأعمال الحديثة لياشار أوجاك[3]، أو أكثر قدماً نوعاً ما مثل أعمال فؤاد كوبرولو[4]، كذلك كتاب إيرين مليكوف الذي يُعتبر حجة في مجاله[5]، ولد الحاج بكتاش عام 1209 في نيسابور بخراسان. تربى على يدي لقمان ـ برنده، مريد الصوفي الكبير أحمد يسوي

(سيد تركستان، المتوفي في 1166) قبل أن ينتوي القدوم إلى الأناضول للإقامة نهائياً في سولوقا قراهويوك حيث بدأ ينشر «كلامه» (عقيدته) الذي دوّنه مريدوه بعد ذلك بالعربية في كتاب «المقالات»[6]. ووفق عاشق باشا زاده، لم يأت الحاج بكتاش بمفرده، وإنما مع أخيه منتس الذي قُتل في سيفاس خلال معركة بين الجيش السلجوقي والبابائيين الذين كان زعيمهم الروحي بابا إلياس. وبما أنه كان درويشاً جوالاً حتى استقراره في سولوقا قراهويوك، فلقد أصبح أيضاً (وعلى وجه الخصوص) زعيم قبيلة تحمل نفس الاسم «بكتاشلو»، وهذا ما أراه أمراً متناقضاً[7]؛ لأنه إذا أصبح المرء زعيماً قبلياً، فمن الصعوبة بما كان أن نتخيله درويشاً متقشفاً ومتأملاً في الوقت نفسه. أياً كان الأمر، أقام الرجل في هذه القرية ذات السبعة بيوت، وعاش حياة هادئة حتى موته نحو 1273. كتب عاشق باشا زاده أيضاً أنه، كدرويش شطحي ومتأمل، لم يكن قادراً على تأسيس طائفة دينية منظمة، وهي المهمة التي أتمها مريدُه عبد الله موسى، وكذا على وجه الخصوص بالم سلطان الذي أتى بعد قرنين من الزمان من ديمتوكا. ويُنظر إلى هذا الأخير إعتباره **البير** (القديس الشفيع) الثاني، المؤسس الحقيقي للطائفة في بداية القرن السادس عشر[8]. كما يؤكد أحمد أفلاقي، مؤلف «مناقب العارفين» (القرن الرابع عشر)، السارد لحياة جلال الدين الرومي، أن الحاج بكتاش، الصديق الموثوق لسيده وإنما أيضاً منافسه الروحي: « ذو قلب كبير يشع بالنور»[9].

يتبدّى الحاج بكتاش حالياً، التي أخذت حياته الواقعية والتاريخية تتكّشف بالكاد، كوليٍ حقيقي كما يتجلى هذا من أحد أسمائه[10]، كما توقره الطائفة العلوية التركية. والملاحظ أن لا اختلاف من حيث الشكل بين العلويين والبكتاشيين، فالإثنان يوقران الحاج بكتاش، الولي الرمز للطائفة، إضافة

إلى أن معتقداتهما وأفكارهما وطقوسهما واحدة[11]. فالحلول، والتناسخ، والتحول تشكل أعمدة العقيدة التي يمكن النظر إليها على أنها هرطقة وِفق رؤية الإسلام السني.

لا أقوم هنا بإجراء تحليل مفصل عن العقيدة العلوية ـ البكتاشية، إذ ليس هذا هدف الكتاب الذي أريده وصفياً. أضيف فقط أن هذه العقيدة، أو بالأحرى هذا الإسلام الشعبي، يُمثل نوعاً من التوفيقية بين بعض العناصر المسيحية ومعتقدات آسيا الوسطى، وبالأخص الشمانية. ومن الضروري أن أبيّن أن البكتاشية غنوصية، ما وراء التوفيقية، وأن العقيدة العلوية تم النظر إليها بصورة مختلفة.

كتبت إيرين مليكوف، في كتابها عن الحاج بكتاش، أن الطريقة استمالت نخبة المجتمع بينما كان العلويين من البدو الرحل، وجزء كبير منهم غير متعلم[12]. وكذا، من اللازم أن أنوّه، فيما يخص البكتاشية والمسيحية، إلى التماثل بين قدوم المسيح وانتظار المهدي (الإمام الثاني عشر المختفي، الذي سيأتي كي يملأ الأرض عدلاً بعد أن امتلأت ظلماً وجوراً)، والتشابه بين ثالوث «الله، محمد، علي» وثالوث «الله، الابن والروح القدس».

ولقد شاعت الأسطورة، والمعجزات، وشهرة الحاج بكتاش لدى مسيحيي قبادوقيا. فضلاً عن ذلك، في شهر أغسطس/آب من كل عام، مع الاحتفالات المقامة في قرية حاج بكتاش، يُطرح هذا الموضوع بصورة يومية على الطاولات المستديرة، ويتحاور الجميع طويلاً حول الثقافة العلوية.

في العام الذي زرت فيه القرية، فَضّلَ الوزيرُ الأول (رجب) طيب آردوغان، على غير عادة سابقيه، أن يتجاهل هذه التظاهرة مُفضّلاً أن يرسل وزير

ثقافته. في الحقيقة، تأخذ هذه التظاهرات المنظمة منذ عام 1964 شكلاً معارضاً لحكومات اليمين التي تتابعت على مدار السنوات الأخيرة[13].

إذا كانت الشخصية التاريخية للحاج بكتاش لم تزل غارقة في الظل، فإننا عرفنا بفضل «مناقب نامة» التي كتبها في النصف الثاني من القرن الخامس درويش الطريقة (رجل كالفردوسي، حسب ع. غولبيناري)[14]، أسطورته بالتفصيل؛ إذ نمت في أحضان الطائفة العلوية ـ البكتاشية.

بهذه الأسطورة إنشغل هذا الكتاب وكُتب.

الهوامش

1- Menâkibu'l-kudsiyye fî Menâsibi'l-ünsiyye: Baba Ilyas-i Horasânî ve sülâlesinin menkâbevi tarihi, hazirlayanlar: Ismail Erünsal ve A.Y.Ocak, TTK yay. Ankara 1995. Un résumé de cet ouvrage se trouve dans Babailer Isyani de A.Y.Ocak, Dergâh yay, Istanbul 2000.

2- Tevârih-I Âl-î Osman, Ahmed Asiki, haz.N.Atsiz, Türkiye yay. Istanbul,1949.

3- Babailer Isyani, op.cit et Alevi ve Bektasi Inançlarinin Islâm Öncesi Temelleri, Iletisim yay.Istanbul,2000.

4- "Bektasiligin Mensei'leri" in Alevilik Bektasilik Arastirmalari, Can yay.Istanbul 1999, pp.105125-

5- Haci Bektas:Efsaneden Gerçege, Cumhuriyet yay.Istanbul,1999 et Uyur Idik Uyardilar, Cem yay. Istanbul 1994.

6- Makalât, haz.Esat Cosan, Istanbul,1986.

تشك إيرين مليكوف من دقة هذا الكتاب المسند إلى الحاج بكتاش. من وجهة نظرها، المبادئ المذكورة في «المقالات» تناقض التقاليد البكتاشية. (Efsaneden Gerçege, op.cit. pp.105-106).. يشاركها نفس وجهة النظر عصمت زكي أيوبوغلو الذي ذكر أن المضمون الأخلاقي ـ الديني في هذا العمل غير متساوق مع البكتاشية.

(Bütün Yönleriyle Haci Bektas Veli Özgür yay.Istanbul,1998, pp.5456-)

7 - I.Melikoff, " L'islam hétérodoxe en Anatolie" in Turcica, t.XIV, p.148.

8 - Nathalie Clayer ," La Bektachiyya" in Les Voies d'Allah, éd.Fayard,Paris 1996, p.468.

9 - Ariflerin Menkibeleri, çev.T.Yazici, Hürriyet yay. Ist.1973, t.I p.371.

10- حسب ولاية نامة، حصل على هذا الاسم لأنه فجر ينبوعاً في فناء المدرسة والحاج لأنه

أهدى معلمه لقمان ـ برنده صحنا من اقليم سولو قاقراهويوك بينما كان في الحج بمكة.

اسم «بكتاش» يعني في التركية «النظير، الشبيه» وبالتعميم «الصديق».

(cf.Bütün Yönleriyle Haci Bektas Veli, op.cit.p.53)

11- I.Melikoff, "L'islam hétérodoxe en Anatolie", op.cit.p.148.

12- Babailer Isyani, op.cit.p.8.

13- « سريعا، ومع ذلك، من الواضح أن قرية الحاج بكتاش مثلت، خلال أيام الاحتفالات الثلاثة، نقطة التقاء للعلويين، وأن بعض الحاضرين فيها قاموا بدور بدور المعبئ، وأخيرا، انتهزت بعض الجماعات الفرصة لكي تمارس العمل السياسي»، كما كتب بول دومون :

(Paul Dumont, " Le poids de l'Alévisme dans la Turquie d'aujourd'hui" in Turcica, t.XXI-XXIII p.162)

14-Vilâyetnâme, A.Gölpinarli, Inkilâp kitabevi, Ist.sans date,p.29

مقدمة
إسلام غير معروف قدره

دراويش جوالون بقلانيسهم الكستنائية المصنوعة من اللبد وأثوابهم البيضاء المستديرة، وجوههم مولعة بالتأمل... هي ذي صورة من بين كثير من الصور التي تبين، منذ زمن طويل ووسط أيقونات السياحة المزدهرة، «إسلاماً غرائبياً»، وتمثل لدى تركيا رمزاً مهماً في التسويق الثقافي، مثل آيا صوفيا أو الجامع الأزرق.

ومع ذلك، يلاقي الزائر الغربي أول إخفاقاته حينما ينشأ يبحث، في تركيا المعاصرة، عن هذه الطقوس الشطحية رفقة الموسيقى، الغناء والرقص. لا يمكن أن تكون الأماكن المختلفة التي وصفها نديم غورسيل خربت إلاّ بمساعدة المواطنين الحذرين، إذ أنه ومنذ عام 1925، ألغيت طرق الدراويش، وأغلقت دورهم، وأهملت أو حولت إلى متاحف. رسميا لا يوجد دراويش، ولن يعيد الدراويش اكتشاف ممارساتهم إلاّ عبر «التظاهرات الثقافية» المفترضة، التي تعتبر بأي حال من الأحوال تكوينا مسرحيا جديدا.

علل آتاتورك، مؤسس تركيا العلمانية، منع الطرق من خلال بعض الكلمات الصارمة: «لا يمكن أن تكون الجمهورية التركية بلد الدراويش، الشيوخ والشطحية (...) عملت دور الدراويش على جعل الشعب مخبولاً. غير أن الشعب قرر أن لا يكون مخبولا ولا جاهلا».

يرجع أصل هذه المنع، منع آتاتورك، إلى الحادثة التي جرت بعد عامين على تأسيس تركيا العلمانية، حيث تزعم بعض الشيوخ حركة تمرد ضد الجمهورية «الكمالية». كان هدفهم إعادة النظام السياسي-الديني للامبراطورية العثمانية. ومنذ ذاك، تم النظر إلى الدراويش في تركيا على كونهم «عقبة أمام التقدم» و«تهديداً للدولة»، ورمزا للعصر البائد، الديني والمتدهور. وبالتالي، من الممكن أن نتساءل إذا كان الأمر يتعلق، ببساطة، بحركة محاطة بهالة المكانة الملتبسة، المتأثرة بالمنع والرفض، التي لا تثير شغفنا اليوم إلاّ بشئ من الغرائبية العجيبة. تلك نظرة تحليلية، على الماضي التاريخي وعلى الحاضر، تترافع لصالح حقيقة أخرى.

منذ القرن العاشر، ترسخت طرق الدراويش بصورة كبيرة في كافة أنحاء العالم الإسلامي تقريباً، ولم تزل تختبر حتى اليوم حضوراً ثقافياً قوياً، وعلى وجه الخصوص في دول كالمغرب ومصر وباكستان وأندونيسيا وفي الأقاليم المسلمة في الهند. والكتاب الحالي يخبرنا أنه حتى في تركيا لم يُكبح جماح هذه الطوائف كلياً.

ترجع كلمة «درويش» إلى الفارسية وتعني الرجل الذي، في حالة من العوز الإرادي، أصبح متسولاً ورعاً يتلقى الصدقات. اصطلاحياً، للكلمة العربية «صوفي» نفس الدلالة، وترجع إلى كلمة «صوف» كما ثوب الرجال البسيط المصنوع من الصوف، بدون لوازم، يفضي إلى حياة دينية وتأملية. نشأ مصطلح «الصوفية» من «صوفي»، الذي يبين ثقافة دينية وتجربة معينة مع الله. اليوم، يُستخدم مصطلحا «درويش» و«صوفي» تقريبا بطريقة تعاوضية.

دوما، يمتلك الغرب فكرة خاطئة معتقدا أن الدراويش والصوفيين رهبان مسلمون يعيشون في الأديرة. ومع ذلك، لا توجد عزوبة في الإسلام، لا

بالنسبة للأئمة ولا للمتأملين الدينيين. كان أغلب الدراويش متزوجين، يمارسون مهنة زمنية لكي يتمكنوا من إعاشة عائلاتهم ويقيمون إرادياً في أبنية شبيهة بالأديرة، صوامع الدراويش الجديدة، للاحتفالات، والتأمل، والغناء، والرقص وتناول الطعام الجماعي. فقط عاشت أقلية لا تذكر منهم دوما في هذه الصوامع.

ينتظم كثير من الدراويش في أحضان الطرق. يحب الأوروبيون أن يضعوا هذه التنظيمات المستمدة من التصوف تحت إطار «الطائفة الدينية». ومع ذلك، هذا التصور «للطائفة» يقع في الخطأ، بما أنه يتأسس على التوازي مع طائفة مسيحية رهبانية وبالأخص عزباء. بالنسبة للأوروبيين، من المناسب استخدام تصور «طائفة»، وهي تسمية تفرض نفسها شيئاً فشيئاً على الكتابات الإسلامية في الغرب. هذا المفهوم لا يشير إلاّ على الرجال، عاكساً بالتالي الواقعة الاجتماعية: في الطريقة، النساء، على وجه العموم، مقبولات، غير أنهن لا يمتلكن إلاّ مكانة تابعة. يعين المسلمون، أنفسهم، هذه التنظيمات ذات المظهر الصوفي تحت الكلمة العربية «طريقة» (وجمعها «طرق»)، كإشارة إلى طريق الحياة الدينية والصوفية.

وصلت طرق الدراويش والصوفيين إلى الآناضول في القرن الثاني عشر، بعد أن غزت العرقية التركية «للسلاجقة» الاقليم وجعلت من مدينة قونية عاصمتها. ومن بين العديد من طرق الدراويش المنتشرة في الفضاء الثقافي التركي، من الضروري الإشارة على وجه الخصوص إلى: المولوية والبكتاشية والنقشبندية.

في القرن الثالث عشر أصبحت قونية عاصمة السلاجقة، المركز الروحي للطائفة المولوية، المعروفة على نطاق واسع في الغرب تحت اسم «الدراويش

الدوارين». جدهم الروحي جلال الدين الرومي، الذي يحمل الاسم الشرفي «مولانا». ولد في عام 1207 في ايران الشرقية وتوفي بقونية في عام 1273. يعتبر واحداً من أبرز الشعراء الفلاسفة والمتصوفين في الإسلام، وضريحه، على الرغم من الالغاء الرسمي لممارسات الدراويش، يبقى المزار الأكثر شعبية والأكثر زيارة في تركيا. ولم تكن من قبيل المصادفة أن ينهي نديم غورسيل رحلته الأدبية لدى الدراويش في قونية بالذات.

تخبرنا حالة جلال الدين الرومي، على وجه الخصوص، أن ممارسات الدراويش أو الصوفيين لم تكن، اطلاقاً، من الحركات التي تساهم في «تخبل الشعب»، كما صرح آتاتورك (الذي رأى، في الواقع، التفسخ الديني والسياسي الذي يتبعها، وليس دلالة هذه الممارسات المهمة للغاية في تاريخ الأفكار).

يعتبر الرومي وكثيرون غيره من الدراويش أن التأمل يسمح للمرء أن يحيا بقوة التجربة الروحية المصاحبة بالموسيقى الطقسية والرقص. سوف تكون هذه التجربة الصوفية أكثر رحابة وأكثر عمقا، في الواقع، من العقائد المتأتية من تأويلات التيولوجيين أو الفلاسفة. «تظل الكلمات مرصوصة على الشاطئ»، كما يقول قول صوفي مأثور. في التدين الصوفي، لا تؤدي المسائل العقائدية أي دور. يتم تجاوز النقاشات المتعلقة بالعقائد، والتي من الممكن أن تقود إلى الحروب الدينية، عبر شكل الصوفية البديل.

يتم النظر إلى النص التالي على أنه تحد للإسلام التقليدي:

ونظرت حولي ابحث عنه، فلم أجده على الصليب، وذهبت إلى هيكل الأوثان، وإلى المعبد القديم، فلم اشاهد فيهما اثراً. ثم وجهت بحثي نحو الكعبة، لكنني لم أجده في هذا المكان (...) ثم تفقدت قلبي، وفيه وجدته، ولم يوجد في مكان سواه.

في هذا النص، تجاسر الرومي على القول «أنه» لا يوجد حتى في الكعبة، المكان الأكثر قداسة في الإسلام. لدى متصوف مثل الرومي، «الله» غير ممثل في «الله» الا بقدر كونه ذاتا . «هو» الصوفي الذي يرجع الرومي إليه لا علاقة له «بالله» المعين عقائديا، وكذا يوجد خارج الناس، في عالم الما وراء. «هو» الصوفي لا يسكن إلاّ في داخل الإنسان نفسه، «في قلبه»، كما القوة التي لا نستطيع تعريفها بالكلمات وإنما من الممكن أن توجد ماديا وذهنيا عبر التأمل، مثل الاحساس الخاص بالجذب. هنا، «الله» و«الإنسان» يصبحان وحدة واحدة.

استنتج الرومي أن التصوف في كافة الأديان - ماوراء الحدود المفروضة من لدن مذهبها الديني - يحقق في النهاية نفس التجربة الالهية. ميز بين «القشرة» (أي العقائد المختلفة فيما بينها)، و«النواة» (التجربة الصوفية). من أدرك «النواة» حقق تجربة «الوحدة» التي تمحي كافة صور الفصل الراجعة إلى العقائد الخاصة بمختلف الأديان. في هذا الصدد، لا يمنح الرومي عقائد الإسلام مكانة سامية بالنسبة للأديان الأخرى، ولكنه يسطر أن التجربة الصوفية تتجاوز كافة الأديان.

أنها مسلمة تحتوي على علامات ثقافية أساسية تعمل على تجاوز النزاعات الدينية، ليس فقط وسط الإسلام، وإنما أيضاً مع كافة الأديان الأخرى. في هذا المعنى، تمثل التجربة الدينية ذات التوجه الصوفي مقدمة معتبرة عن التسامح إزاء المذاهب الأخرى - كحاجز ضد كافة أشكال الأصولية والتعصب. ومن وجهة نظر معاصرة، يتبدى الرومي كمثقف جديد، راهني وحديث بصورة مذهلة. الصوفية - أي الشكل الإسلامي للتصوف - بعيدة هنا عن كافة صور العشق الديني الغامض نوعا ما، وأصبحت على العكس تحديا ثقافيا بالنسبة لأرثودوكسية كافة الأديان.

خلال العصر العثماني، من القرن الرابع عشر حتى القرن العشرين، تحصلت الطريقة المولوية لجلال الدين الرومي على أهمية، دينية كما سياسية، كبيرة. دعم العثمانيون الطرق بمنحها الأراضي، اذ ثمّن السلاطين هذه الارادة لدى الدراويش باجتياز العراقيل الدوغمائية والعاطفية بين المذاهب والأديان، بين السنة والشيعة، وأيضاً بين المسلمين والمسيحيين. وهكذا، ساهم المولويون جوهريا في التعايش الهادئ في أحضان امبراطورية العثمانيين متعددة المذاهب. بيد أن التداخل الوثيق للغاية بين الدين والسياسة حوّل كثير من الشيوخ الدراويش إلى ملاّك أراض أثرياء، وبالتالي إلى مستفيدين من نظام إقطاعي جائر، أدى إلى هذا التفسخ الذي قضى آتاتورك عليه.

ومن ناحية أخرى، كان لطرق الدراويش، وعلى وجه الخصوص الطريقة المولوية، وظيفة اجتماعية جوهرية. حتى القرن العشرين، لم يحز أي بلد إسلامي على نظام ضمان اجتماعي، وفي الحقيقة، أن طرق الدراويش حلت محل الدولة بمنح الضمان الاجتماعي إلى حد ما إلى الفقراء، والمرضى والعاطلين. من بين مميزات كثير من صوامع الدراويش الجديرة بالذكر، أنها تحتوي على مطابخ وقاعات طعام. لم تكن هذه المطابخ مخصصة فقط للدراويش، وانما تخدم المسافرين وعدداً كبيراً من الزوار الذين يعيشون دون الحد الأدنى للعيش. في واقع هذا البر والاحسان الفعال، أصبحت هذه المراكز الروحية حيوية للغاية لمن لا يأملون توفر مساعدة أخرى. وفي هذا المعنى، أدت صوامع الدراويش وظيفة كالتي أدتها الأديرة في أوروبا خلال العصور الوسطى.

تخصيصا، تنشط الطريقة المولوية وسط الطبقات المتعلمة، العليا

والمتوسطة، خالقة شبكة متموضعة على مبدأ «العاطي الوهاب». بينما أنه، من ناحية أولى، غذى الأمراء كبار الموظفين والمتعلمين والتجار بكرم صناديق صوامع الدراويش، كما نمت، تحت رعاية هذه الصوامع، شبكات وبنى اعلامية عن كل من اندمج في الطريقة. خلال قرون، كانت هذه الشبكات لا غنى عنها، اذ أن في أقاليم الامبراطورية العثمانية ـ كما في أقاليم أخرى في كثير من البلدان ـ كان هناك فراغ قانوني كبير نسبياً. وبالتالي، منحت الطرق ـ على عكس تنظيمات الدولة ـ شيئا من الضمان الاجتماعي.

لا تمثل المولوية استثناء. في أحضان الطرق الأخرى، تمتعت طوائف اجتماعية أخرى، للحرفيين، والجنود، والفلاحين أو البدو، بحماية مثلى. مع بداية القرن العشرين، انتشر هذا النمط للصومعة، بتعدد وظائفها ـ الدينية، الاجتماعية والسياسية ـ ، لدى غالبية مسلمي الآناضول ـ وكثير من مسلمي العالم الإسلامي ـ المنضوين في إحدى هذه الروابط العديدة.

تعتبر طريقة الدراويش البكتاشيين الطريقة الكبيرة الثانية ذات التأثير المعلوم في تاريخ الآناضول. على خلاف المولوية، لا يمثل أعضاؤها جزءاً من الطبقات المتعلمة، وإنما طبقات الحرفيين، والفلاحين والبدو، ولكن مع اختلاف مهم: لا تنتمي البكتاشية إلى المذهب السني وإنما إلى المذهب العلوي. بوجه خاص، درس نديم غورسيل مراكز مزاراتهم.

نشأ المذهب العلوي خلال القرن الرابع في العراق، بيد أنه نما أساساً بعد ذاك في سوريا والآناضول. اليوم، يشكل العلويون 13% من تعداد سكان سوريا، و 25% من مثيله الآناضولي. يعني اسم «علوي» نصير علي، علي بن أبي طالب، صهر النبي محمد ورابع الخلفاء الراشدين في الإسلام، الذي أصبح الجد الروحي للمذهب الشيعي. غير أن العلويين أخذوا مسافة عن

الشيعة. وصف نديم غورسيل بعض مظاهر مذهبهم الجوهرية: وجود خطوط متوازية مع أشكال الفكر المسيحي، رفض الشريعة، العدول عن الحج إلى مكة، لا منع بالنسبة للخمر، حرية المرأة. ولكن أهل السنة والشيعة ينظرون إلى العلويين «كهراطقة»، وأن سلطتهم العليا ليست النبي محمد وإنما صهره علي. ولذا كان العلويون، في سوريا وتركيا، ضحايا الاضطهاد الدموي على مدى التاريخ، على وجه الخصوص من قبل أهل السنة الذين منعوهم، على عكس ما جرى مع المسيحيين واليهود، من إمكانية العيش بحرية وممارسة شعائرهم علانية.

حتى في تركيا العلمانية، لم ينته اضطهاد العلويين. بل على العكس، وعلى الرغم من أن الدستور يضمن رسميا حرية العبادة، لم يكن من حق العلويين دراسة عقيدتهم داخل المدارس الحكومية، وخضعوا لدراسة التعليم الديني ذي المضمون القومي للغالبية السنية. وممارسات المتشددين الدموية ازاء العلويين كثيرة. كان الحدثان الدراميان المعروفان على المستوى العالمي، هما المذبحة التي جرت في عام 1993 في مدينة سيفاس بالآناضول وأودت بحياة سبعة وثلاثين فناناً، والتفجيرات التي أرتكبت بحق علوي اسطنبول، التي سببت هياجاً شعبيا في كافة أنحاء البلاد.

أصبحت الطريقة البكتاشية المؤسسة الروحية الأكثر أهمية لدى العلويين. ترجع إلى الحاج بكتاش الذي جاء من إيران في القرن الرابع عشر الميلادي واستقر في الآناضول الوسطى، قرب الأقليم المعروف بكنائسه المقامة في المغارات بغوريم. داخل الامبراطورية العثمانية، أدت الطريقة البكتاشية، كما مولوية جلال الدين الرومي، دوراً جوهرياً من وجهتي النظر الدينية والسياسية. كان السلاطين العثمانيون يساندونهم لأن هؤلاء الدراويش أصبحوا وسطاء

لا غنى عنهم، بعد التوترات الدائرة بين الغالبية السنية والعلويين. ومثلهم مثل المولويين، يعظّم البكتاشيون المساواة بين كافة المذاهب. ولذا يجد المرء في القصائد العلوية، وعلى وجه الخصوص لدى شاعر القرن الثالث عشر الكبير، يونس امره، نفس الفكرة الدينية والصوفية عن «الاتحاد»، بدون أي اختلاف جوهري مع معتقدات الدرويش الرومي السني الراسخة. كان يونس يرى أيضاً أن الاختلافات الدينية تتبدى فقط عبر «قشرتها» (العقيدة) وليس عبر «نواتها» (التجربة الصوفية الالهية).

من الصحيح أن يقال، بسبب التورط المتنامي للطريقة البكتاشية في السياسة، أن دراويشها استسلموا لاغواءات السلطة. ونتيجة لإغراءات السلاطين العثمانيين، أصبحوا القادة الأساسيين للإنكشارية، الجسد العسكري المرعب للنخبة العثمانية. وكذلك كلما أساء هؤلاء الجنود استعمال سلطاتهم بتكديس المزايا الكبيرة، ابتعد هؤلاء البكتاشيون عن تصوراتهم المثالية الأصيلة، وفي المرحلة الأخيرة من التدهور العثماني، لم يكن يميز قادتهم شيئا عن الأمراء الاقطاعيين الطامعين في السلطة. ولهذا رأى آتاتورك في تنظيماتهم خطراً كامنا يهدد الدولة الحديثة.

الطريقة الآناضولية الثالثة هي طريقة الدراويش النقشبنديين. تحمل اسم مؤسسها بهاء الدين نقشبند[1]، الذي عاش في بخارى (اليوم، تقع في

1- محمد بهاء الدين شاه نقشبند سنة (717 هجرية ـ 791 هجرية). مؤسس الطريقة النقشبنيدية. يذكر أصحاب الطريقة النقشبندية أن طريقتهم كانت تسمى «الصديقية» نسبة إلى أبي بكر الصديق. تنتشر الطريقة النقشبندية في جميع أنحاء العالم خصوصاً في بلاد القوقاز وبخاري وسمرقند وتركمان صحراء في الاتحاد السوفياتي وشبه القارة الهندية سابقاً، حيث ان سادات الطريقة النقشبندية من تلك البلاد. تنتشر الطريقة في معظم البلاد العربية، خصوصا في العراق وبلاد الشام. (المترجم)

أوزيكستان) بين عامي 1318 و1389. حتى نهاية القرن العشرين، كان تأثير هذه الطريقة أقل عن تأثير المولوية والبكتاشية. ولكن شيوخ النقشبندية قادوا تمرد 1925 ضد آتاتورك، بهدف ازالة دولته العلمانية والزمنية. كان نتيجة هذا التمرد، كما أشرنا من قبل، أن ألغى آتاتورك كافة طرق الدراويش لأنها، جميعا، في آخر الأمر، تعاطفت مع مقاومة النقشبنديين.

لم يزل النقشبنديون يتابعون نشاطاتهم حتى اليوم، في الجمهورية التركية تحت غطاء مختلف «الجمعيات الثقافية». يشجعون الناخبين على التصويت لصالح الأحزاب ذات الصفة الإسلامية، المحافظة نوعا ما. أقام رجب طيب أردوغان، الوزير الأول، حوارات مع هذه «الجمعيات الثقافية». وكان هذا هو حال نجم الدين آربكان صاحب الميول الإسلامية الذي تقلد منصب الوزير الأول من عام 1996 إلى عام 1997، والذي، تحت ضغط مجلس الأمن القومي، أعفي من وظائفه بسبب «الميول المخالفة للدستور». وكان تورغوت أوزال، الوزير الأول من عام 1983 إلى عام 1989، ثم رئيس الجمهورية حتى موته في عام 1993، قريبا للغاية من الطريقة النقشبندية. في غضون ذلك، نجح النقشبنديون في تجاوز، بأعداد المتعاطفين والمريدين، كافة الطرق الأخرى الموجودة رسمياً في تركيا. بالمثل، حتى لدى الأتراك المقيمين في ألمانيا، أصبحت الطريقة الأكثر أهمية. حتى اليوم، تتحفظ كثير من «جمعياتها الثقافية» ازاء الفكرة العلمانية والزمنية، وقد صنفت على أنها «منتجة مشاكل» من لدن مجلس الأمن القومي في تركيا.

لم ينشغل نديم غورسيل بالدراويش النقشبندية. وهذا يعبر عن نفسه بسبب نظرة كثير من مريديها تجاه الشيعة والعلويين، وكذا للأنشطة السياسية ـ الدينية لهذه الجماعات لفائدة التوجه السني فقط أساسا.

اختار غورسيل أن يحيى ببساطة الإيمان الشعبي، ما وراء كافة التضمينات السياسية، وركز بالتالي على أساطير الطريقتين المولوية والبكتاشية، اللتين أصبحتا منذ زمن طويل «زاهدتين» سياسيا. بدقة كبيرة، وصف على وجه الخصوص الأساطير الناشئة حول الدراويش العلويين، مما سمح بالتالي، ليس للقارئ الأوروبي فحسب، وانما لكثير من القراء الأتراك، الاقتراب من عالم غريب تماما. خلف الحبكات السردية الكثيرة، المنسوجة بالأساطير والحكايات، وبدءا من القرن السادس، اتضح أن دراويش مختلف الطرق ساهموا في انتشار الإسلام وسط مجتمعات يدين أغلبها بالمسيحية، بالاستيلاء سلمياً على الآناضول، إذ أن الفاتحين المسلمين لم يحققوها بحد السيف.

في السير التركية المعاصرة، لا يمكن النظر إلى كثير من الروايات على اعتبار أنها مراجع قابلة لاضاءة سيرورة الأسلمة التدريجية للآناضول، لأنها تحتوي على كثير من عناصر «الخرافات». تساهم كتابات غورسيل في إدراج هذه المراجع في الوعي الشعبي، وعي الأتراك في المقام الأول ـ وتدعو إلى اخضاع هذه الأساطير للتحليل النقدي نسبة إلى قيمتها التاريخية. في الحالة الأولى، بما أنها تتأتى، أساسا، من كنز أساطير العلويين، الذين عانوا من الاضطهاد العثماني، يشير غورسيل إلى أدب منعته الغالبية التركية.

في هذا الصدد، للقارئ الأوروبي والسائح مقاربة مختلفة لغورسيل، بما أنهما يهتمان، على اعتبار كونهما غير مسلمين، بالأدب الذي أنتجه الدراويش أو القريبون منهم. بالنسبة لي، من خلال قراءة أساطير الدراويش وأبيات كبار شعرائهم، ركزت بالأخص على مسألة: كيف أسقط فكرهم التصوفي الحواجز بالنسبة إلى التيولوجيين الآخرين والأديان الأخرى؟ ونجحتُ في التوصل إلى اكتشافات موحية، ليس فقط عبر قصائد جلال الدين الرومي،

ويونس أمره وغيرهما؛ وانما أيضاً عبر التجربة المعاشة لسلوك زوار أضرحة كبار الدراويش المعتبرين. أكثر من مرة، لاحظت أنني، بما أنني غير مسلم، شاركت في احتفالات على قدم المساواة مع المسلمين، بمقتضى المبدأ الذي يرى إلى أن مؤمني كافة الأديان هم «على طريق اللّه».

ومع ذلك، في ألمانيا وفي النمسا، تمكنت من التوصل إلى ملاحظات مهمة. في هذين البلدين، داخل الطرق الصوفية التركية، العربية والايرانية، يتواصل المسيحيون والمسلمون فيما بينهم بقوة. قيل لي أنه من غير الضروري على الاطلاق أن يكون المرء مسلما لكي يكون صوفيا (أو درويشا)، لأن التأمل يوحد بين مؤمني كافة الأديان على نفس السطح، لاغياً بالتالي كافة الحواجز. في هذا المناخ، من الممكن أن يتلاقى أهل السنة والشيعة بدون آراء مسبقة. في مدينة ألمانية كبيرة، تمتعت بامتياز أن أحيا تجربة إيحائية شديدة الخصوصية صحبة موسيقى الدراويش التأملية، حينما رأيت عازفين من السنة والعلويين والمسيحيين الألمان يعزفون على الآلات ويغنون معاً. يفتح التدين الصوفي هنا بعدا جديدا كليا، واقفا ضد كل عقيدة غير متسامحة تدّعي أنها وحدها تملك الحقيقة المطلقة.

هذه الاتصالات بين أهل السنة والعلويين غير ممكنة في تركيا، وهي من الممكن أن تزدهر في دول أوروبا الغربية. في هذه الدول، يستطيع المسلمون وغير المسلمين أن يتواصلوا بحرية أكبر، ما وراء كافة الحواجز الايديولوجية أو الدينية. وهذا راجع في جزء منه إلى كون أنه في ألمانيا، كما في أوروبا الغربية عامة، نموذج الدولة العلمانية كما التسامح الجمعي المرتبط بها يتموضعان بصورة محددة عما ما هو في تركيا. إذاً، تستطيع الصوفية أن تتطور بحرية

فـي هذه الدول العلمانية، لا تمنعها ولا تعارضها نزعة إسلامية تقليدية ضيقة الأفق.

تستطيع الصوفية ودعوتها التحررية أساسا، على الأقل خلال العقود القادمة، من الانتشار فـي أوروبا الغربية دون الدول الإسلامية. إذ أن، شيئا بعد شئ، سوف تحجب بلورة فضاء الإسلام الأوروبي، الذي يُقدِّر من ناحية المبدأ تعددية المجتمع، الحواجز الثقافية والذهنية لدى المسلمين، بين «مؤمن» و«كافر»، سني وشيعي، مسلم وغير مسلم.

يسمح فضاء الإسلام الأوروبي الصوفية من التطور بلا تحفظ، وبالتالي تتحصل على مردودات فـي تركيا ودول إسلامية أخرى.

غرهاردت شفايتسر

أعرف أن كيزليرماك، النهر الأحمر، الذي يستمد منبعه من شرق جبال كوسداج، يسيل نحو البحر الأسود بعد أن يكون قد أحيا أرض الأناضول الوسطى القاحلة حيث يرسم قوسا عريضا. بيد أنني لا أعرف أن في فصل الصيف تكون مياهه غزيرة نوعا ما وتسيل في بطء. يجتاز آفانوس ويرسم حدود قابادوقيا . تاركين العالم الذكوري للسكك الحديدية التي تجعل المرء يفكر في أعضاء ضخمة، نخترق سهولاً شاسعة الأبعاد، عالما نسويا، بخطوطه المنبعجة وربواته العارية التي تذكر المرء بصدر امرأة. البيوت الكهفية، الصخور التي حفرتها الطبيعة، أبراج الحمام، المدن القديمة، تحت الأرض، خلفنا الآن. مع خيوط العشب الأخضر الضامرة تنبجس مجاري مياه على فراش يابس، أحجاره تشتعل في وهج الشمس، حقول قمحه، ليله الكبير الذي يمتلئ بغتة بالنجوم، ينبسط السهل أمامنا كما البساط.

عابرا الجسر، تطلعت إلى الأسفل. كان النهر، نكاية في اسمه، ذا رغوة خضراء. قلت في نفسي أنه في الربيع، لما تذوب ثلوج آرغييس، تمنح مجاري المياه الهابطة نحو السهل، المحملة بأعشاب الجولق والطمي، المياه لونها

الأحمر. «حينما يندفع، كما سيقول ياشار بويراز لنا، تأخذ بالقطع روحا، لا، لن توقف أبدا المياه الجارية». بيد أننا لم نتعرف بعد على ياشار بويراز. سنان، صديقي المصور، لم يثبته بعد على الشريط وهو يسقي بقراته.

لم ندرك بعد ايسكي يايلاسيك، قرية تقع في حضن جبل هيرقاداغ، كي نسمع أباه العجوز يحكي معجزات الحاج بكتاش. كانت الطريق طويلة، وكان الطقس حارا. «الشمس على رؤوسنا كعمامة من نار/ والأرض اليابسة تنتعل أقدامنا العارية». هذان بيتان لناظم حكمت الذي استدعى الأناضول خلال حرب الاستقلال. نحو الشمس، رؤوسنا تحتها، لا ننتعل صنادلَ. لا نستقل عربة يجرها ثور أو يقطرها حصان، وانما في سيارة. ومع ذلك، يستدعي المنظر الطبيعي البؤس والحقول المهجورة لهذه السنوات القاسية.

نحاذي كيزليرماك. هنا وهناك، تكونت جزر صغيرة وسط النهر وباقات خضراء من أعواد البوص تفيد كمأوى للطيور. كانت الضفتان محاطتين بصفوف من الحور وفي المذياع صوت امرأة تغني بصوت عال: «يا أشجار الحور! يا أشجار الحور!/ الحزن يتبعني». كان صوت سيزين آكسو. تذكر ألم صديقي العجوز ميتين آلتيوك [1]، الذي تم اغتياله فيما بعد من قبل بعض المتعصبين، ووحدته التي تسكن قلب السهل. «يا أشجار الحور! آه يا أشجار الحور!/ جسدي يذوب، قلبي يذوي». بينما تغني آكسو فيما أشجار الحور، رمز الاقليم، تهتز في لمعة الفجر الشاحبة. يتملكني الضعف ازاء هذا التعبير الذي أستعيره عن الحاج بكتاش: «رأيت علي، نعم رأيته/ في لمعة الفجر الشاحبة». غير أننا لم نر علياً يتجسد في أي شخص ولا النقوش التي تمثله

وانما وجدناه في العيد الشعبي للمقاطعة التي تحمل اسم الحاج بكتاش. ننشغل إلى حد ما كي نعرف إذا كان عيد الله على الأرض، بيد أننا ندرك أن البعض يعتقده ولدينا احترام كبير لعقيدتهم. أحمد يسوي(2)، معلم الحاج بكتاش، الذي تحول إلى طائر كركي، شوهد في سماء تركستان قبل أن يحط على أمواج آمو ـ داريا الصاخبة. ماداً رأسي إلى خارج السيارة، أنظر إلى السماء. لا توجد طيور كركي ولا سحب وردية ولا بيضاء. ولا حتى بقعة صغيرة على الأزرق العميق. بئس الأمر ! ليس طائر الكركي الذي يهم في هذه الحكاية : المهم ما يمثله، ما يرمز إليه. تمتد الأرض الحمراء إلى ما الا نهاية. في «صور من بلادي»، أكد ناظم أنها حرّيفة كما الفلفل.

تركنا الطريق الأسفلتية واندفعنا على أرض وعرة. قبالتي، لمحت شجرة مائلة على تلة جرداء. شجرة ضامرة، وحيدة. ليست شجرة زيتون ولا شجرة كمثرى برية. لا تشبه شجرة تين ولا شجرة توت. أوراقها سميكة، وأغصانها جافة. حينما بلغناها، اتجهت أجلس إلى ظلها. فجأة، أخذت تتكلم وتقدم نفسها. لا تقل لي أن الأشجار لا تتكلم ! إذا اجتزتم السهل ذات صباح لزيارة الحاج بكتاش، إذا كانت الطريق طويلة والطقس حارا، إذا كانت الرياح تكبح أوراق الشجر عن الحركة عند أقدامكم حيث جلستم، إذا انطلقتم متجهين إلى قبر المعلم، سوف تتكلم الشجرة، تأكدوا، والرياح أيضاً. «ما بك حتى تتطلع الي هكذا، ألم تعرفني ؟ أنا غبيراء. منذ ما يقرب من سبعة قرون، جاء قروي فقير، مثلك، يستظل بظلي. فيما بعد علمت أنه أصبح ولياً. قام بالعديد من المعجزات، ألا تعرفه؟». بالتأكيد أعرفه ! لم يقم بأربع ولا بسبع معجزات، وإنما بأربعين معجزة. منذ ما يقرب من سبعة قرون، كان يحيا قروي شيعي

يوقر ثلاثة «الله ـ محمد ـ علي» وكان مشايعا للعلويين الذين انغرزوا في هذا الاقليم. في يوم من الأيام، لجأ إلى ظل هذه الشجرة، يجني ثمراتها العنبية ويحملها على ثوره، ثم يدق على باب الحاج الولي بكتاش. كان اسمه يونس. بعد فترة من الزمن، أضاف إليه شيخ طابطوك امري[3]، وكانت قدراته لا توصف. ولكن لنطالع «ولايتنامة» :

«كان يونس فقيرا يعمل في الأرض. جاء عام القحط حيث نقصت الغلال. مثل الجميع، سمع يونس الناس يتكلمون عن الحاج بكتاش، فقرر أن يطلب مساعدته. حمّل ثوره بأجولة ثمرات الزعرور وذهب إلى قراهويوك. «أنا رجل فقير،» قال للمعلم. «لم أحصد شيئا، تناول هذه الثمرات واعطنا نأكل، أنا وأسرتي».

بمبادلة الثمرات، اقترح الحاج بكتاش على يونس أن يمنحه العطف الالهي وليس شيئا من القمح. تخيلوا الآناضول وقتذاك. بذر الاحتلال المغولي الفوضى. عرف الشعب الجوع والبؤس. انتظمت الطريقة المولوية ـ التي أسسها مولانا جلال الدين الرومي ـ ، القريبة من السلطة السلجوقية، في جماعات داخل المدن، والتكايا التي أقامها الدراويش في المدن كانت بالنسبة للفلاحين باب الأمل. كان الايمان أمرا طيبا ليونس، وكان في حاجة أيضاً إلى القمح كي يطعم عائلته. أصر المعلم، ولكن يونس كابر. بودل ثوره بالقمح الذي يستطيع حمله ويتمكن من الذهاب إلى بيته. ولكن، خلال السير، سرق اللصوص يونس. وقد أخذ ضميره يبكته، رجع إلى التكية وطلب أن يكون مطلعا على السر.

قام المريدون باخبار المعلم. قال: «منذ الآن، لا تمضي الأشياء هكذا، استعدنا مفاتيح الإيمان من طابطوك امري. ليذهب هذا الرجل لرؤيتها، إنه من سيطلع على

سرها». ردد المريدون كلام المعلم على يونس، الذي ذهب إلى رؤية طابطوك، ونقل اليه تحيات المعلم، وعرض عليه مسألته. شكره طابطوك على التحيات، ورحب به متمنيا له حظا سعيدا: «نعرف حالتك، انضمْ إلينا، اعملْ لأجلنا وتلقْ تدريبك».

منذ هذه اللحظة، نعرف أنه سيكون متدربا على يدي طابطوك امري، انحل لسان يونس عن عقدته، أنشأ يقول الشعر، وكلامه، المستعار عن التقاليد، يمثل جزءا من إرث الانسانية. نعرف أيضاً أن قبره يقع في حضن تلة قرب ضيعة بكتاش. بيد أننا نجهل، أو بالأحرى نتناسى، أن ثقافة العلوية ـ البكتاشية متسامحة وتؤمن بالمساواة، لنقل أكثر ديموقراطية، عن الثقافة الأصولية، وأنها تمنح مكانة مميزة للمرأة. لن نتجه هنا إلى تحليل، تفصيليا، هذه الثقافة التي تمثل نوعا من التوفيقية التي حفظت المعتقدات الرئيسية لآسيا الوسطى، وتحديدا الشمانية[4] والمسيحية. لنذكر فقط أن البكتاشية معرفة روحية استوعبت مختلف المعتقدات وأن العلوية (عن الامام علي) مختلفة بالنسبة لها. في عملها، الذي كرسته عن الحاج بكتاش، كتبت ايرين ماليكوف أن البكتاشيين يمثلون نخبة، وأن التكايا تجمع المثقفين، بينما أن العلويين رُحَّل وعلى وجه العموم أميون. نذكر عنصرين مشتركين عن البكتاشية والمسيحية: انتظار المهدي، الذي يعد واقعة حقيقية لدى العلويين (يعتقدون أن الامام الاثنى عشر، الذي اختفى، سيعود في يوم من الأيام، وسيمحي عالم الفقر والظلم)، يتجلى لدى المسيحيين في عودة المسيح، ومن ناحية ثانية، ثالوث «الله ـ محمد ـ علي» يستدعي الثالوث الأقدس (الأب ـ الابن ـ الروح القدس). ولا ننسى أن معجزات وأساطير الحاج بكتاش تتبدى كأنها تستند إلى أساطير سان هارالامبوس بقبادوقيا. فضلا عن ذلك سيبقى هذا الموضوع مذكوراً

كل عام خلال الاحتفالات الرسمية التي تقام في ضيعة الحاج بكتاش: يلقي الشعراء فيها قصائدهم ، احتفالات دينية مرفوقة بالتنورة، الرقصة المقدسة، وطاولات نقاش مستديرة حسب الثقافة العلوية ـ البكتاشية. في هذه المناسبة، لا يأنف السياسيون الأتراك، ومن ضمنهم الوزير الأول، من القدوم لإلقاء خطبة.

ولايتنامة، الكتاب الأقدم عمرا والذي يرجع إلى حياة الحاج بكتاش، مؤسس أو بالضبط ملهم البكتاشية، يعلمنا أن المعلم بلغ تركيا على صورة حمامة بيضاء، علامة السلام، وأسس قرية سولوقا قراهويوك التي تحمل نفس الاسم حتى اليوم. نعرف أن الحاج الولي بكتاش، مريد خوجه أحمد يسوي، كان أحد رجال الله القادمين من خراسان. حينما أقول «رجل الله»، أعني طريقة للكلام ، اذ كان من بينهم امرأة، مثل فاطمة باقي ، ابنة سيد نور الدين من سيفريهيسار، التي أطلق عاشق باشا زيد، المدون العثماني، عليها لقب «سيدة بلاد الروم» (الآناضول). لعبت هذه المرأة دورا في قدوم السيد إلى الآناضول، الذي يعتبر، حسبما وجهة نظري، علامة معرفة حقوق النساء في البكتاشية. حينما وصل الحاج الولي بكتاش، متحولا إلى حمامة، إلى خراسان بخفقة جناح، بينما انتشر دراويش طائفة أخرى، متحولين إلى صقور، في الأجواء، الواحد منهم لصق الآخر لكي يمنعوه من أن يحط في الآناضول. ولكن، حسب ولايتنامة، ارتفع الحاج بكتاش إلى أعلى حتى نجح في أن يهرب منهم. ثم استقر على صخرة بقرية صغيرة تدعى سولوقا قراهويوك، لا تحتوي الا على سبعة منازل. غرز قائمتيه المهيبتين في الصخرة التي أصبحت رخوة كما الصلصال. حينئذ أرسل الدراويش الحاج دوغرول، أحد مريدي السلطان

بايزيد، اليه. حينما صارعه، هذا المتحول إلى صقر، استرد فجأة هيئته الانسانية، وماداً يده، قبض عليه بقوة حتى اعتقد الآخر أن روحه تزهق. قائماً، غالى في الاعتذار. «لا تفعل مثلي»، قال. كانت إجابة الحاج بكتاش بليغة: «ها دوغرول! لا يفعل إنسان هكذا مع إنسان آخر، لقد اعتدت علي، بينما أتيت بكل براءة، إذا كان هناك مخلوق أكثر وداعة عن الحمامة لاستعرت شكله».

بوضوح، كان كلامه يحمل رسالة سلام عالمية. وبلادنا، والعالم بأسره في حاجة إلى السلام عن ذي قبل. في الجبال، التلال، الحقول الوفيرة الحصاد والسهول الشاسعة نشعر بصفاء متناغم يخترقنا، ونبلغ السمو. ونعرف لماذا أزهرت الصوفية، المنطلقة من هذه الأراضي القاحلة، من هذه الصخور التي أحرقتها الشمس، من هذه الشجرة الوحيدة ذات الأغصان التي تهزها الرياح، في الآناضول. يترك المرء نفسه للرياح تحمله. هنا، إنه لا يحث خطاه كما في المدن، يدور في بطء كحجر طاحونة، في دورانه، يجلب لنا أساطير ومعتقدات الأيام السحيقة. إنه البلد الذي يكوّن ذاكرة الشعب الجمعية، كما تبينها هذه الحكاية التي تمضي عبر جبل هرقاداغ، والتي قَصَّها علي راعي الغنم ياشار في اسكي يايلاسيك، قرية جاثمة على منحدر جنوبي لبركان. فيما بعد، ألفيت رواية أخرى في «ولايتنامة»، لم تثر دهشتي اطلاقاً.

في يوم من الأيام، قابل الحاج بكتاش ثلة من الدراويش تشتكي من مناخ سولوقا قراهويوك، اذ وجدوا الشتاء قارس البرودة فيما الصيف شديد الحرارة. بلغوا قمة جبل سالكة، جلسوا يتحدثون، ولما هبط الليل أشعلوا نارا كبيرة. على نور الشعلات، أنشأ المعلم يرقص الرقصة المقدسة. قام مريدوه

بتقليده. وهكذا خلع رداءه وألقاه إلى النار. حينما احترق، جمع الرماد ونبس بهذه الكلمات : «هنا حيث يسقط الرماد، لن نحتاج أبدا إلى خشب !». انبجست أشجار من كافة الجهات واكتست الأرض بالخضار. ولذا سُميت القمة بهرقاداغ، جبل الرداء. أضاف الراعي العجوز ياشار : «وان تمنى كافة الشيوخ أن تتوفر الأخشاب هنا حتى يوم القيامة، لن يفيد في شيء ! لقد قطعنا كافة الأشجار، الواحدة تلو الأخرى، إلى الشجرة الأخيرة».

قرأت في ولايتنامة أن الحاج بكتاش، وهو يجتاز هذه القرية، رأى امرأة تخض اللبن. لكي يختبرها، طلب منها أن تعطيه شيئا من الزبدة التي تعدها. وبما أنها رفضت، لعنها بهذه الكلمات: «أن لا ينتهي عملك كامرأة أبدا !». ثم، كي ينجو من القرويين الذي يقتفون أثره، صعد إلى قمة هرقاداغ، واختبأ خلف شجرة عرعر، وصلّى لأجل هذه الشجرة التي أنقذته من عقاب القرويين : «أن تكون هذه الشجرة خضراء دوما !». وحتى اليوم، عمل المرأة لا نهاية له، ولا تخضرّ أشجار العرعر، بالمقابل، منذ زمن.

رافعاً العينين حتى أعلى هرقاداغ، لم أر سوى شجرة عرعر واحدة، شجرة وحيدة، مقدسة لدى الشمانيين كما لدى البكتاشيين. غير أن أوراقها ذابلة وجذعها ناحل. بمعنى أن هذه القمة جرداء.

***

البيوت المتروكة من قبل الحاج الولي بكتاش تقع قبالة البلدية. يحتوي المكان على التكية، إلى جانب حديقة الحرية، ومتحف. بعد وفاة الحاج بكتاش، أو، باستعارة تعبيره، «اتجه نحو الله» ، شيدت هذه البيوت. بدأ بناؤها مع أورخان

الظافر، وتبعه مراد الظافر وبايزيد الصاعقة، ثم أتمها سليم القاطع، وبا يزيد الثاني، الابن الورع لمحمد الفاتح، الذي كسا قبابها بالرصاص.

اجتزنا الفناء الأول، المسمى «بفناء الجاهل». أمام ثلاثة ينابيع متجهة إلى الشرق يسود هياج غير قابل للوصف. يتدافع الزوار لشرب المياه المقدسة. بينهم أطفال، نساء كبيرات سناً، عجائز ذوو شعور بيضاء وأيضاً بعض العاجزين. كنت أقف بعيدا أنظر إلى الكتابة العربية، غير أنني لاحظت نجمة حجرية ذات ستة شعب، يسمونها «خاتم سليمان». تاركاً صديقي سنان أمام النجمة، عبرت «باب الثلاثة» وبلغت الفناء الثاني، «فناء الدير». يحتل حوض وسط هذا الفضاء المربع، وعلى الحائط المقابل للمدخل يرتسم إكليل من المرمر منقسم إلى إثنى عشر قسماً تعبر عن المراتب الاثنى عشر من مراتب الأخوية والاثنى عشر إماماً. بدون أن أتأخر، أخذت أشق طريقا لي بين الجموع المتحلقة أمام ينبوع التكية الثاني، المسمى «ينبوع الأسود». تاركاً خلفي كل هذه الصور الأناضولية ـ قروي ذو وجه أسمر يعتمر قبعة وبنطالا ضيقا، فتيات تسحبن أخوتهن الصغار، شباب لفوا رؤوسهم بشرائط «الله يبارك علي!» ـ، ولجت المطبخ. أعرف أن في موقد غرفة الطعام التي يتناول الضيوف من الدراويش فيها طعامهم ينتظرني قدرا معدنيا أسود ذا سبع مقابض. وفق قصيدة قايغوسوز عبد الله (5)، من الممكن أن تطهى فيها سبع أوزات في آن واحد. وفي هذا القدر الكبير نفسه ظل قارادونلو جان بابا يُطهى ثلاثة نهارات وثلاث ليال.

كان رجلا فقيراً أتى إلى قراهويوك، كي يقبّل يد المعلم، يلتمس بركته

ويتوسل مساعدته. مرتدياً السواد ومعتمراً قلنسوة حمراء، كان يموت جوعاً. ربت المعلم على ظهره، ومنحه بركته، ثم بعثه إلى خان التاتار قاووس لكي يطلب منه أن يهجر ديانة المسيح ويهتدي إلى الإسلام. ومع ذلك، وبالقرب من الخان كان هناك راهب شهير، طلب بعض البراهين: «املأ بالماء هذا القدر الكبير حتى يبلغ حده فمك، أشعل نارا قوية تحته، أندس فيه، وغطه بالغطاء وابق فيه وهو يغلي لثلاثة نهارات. إذا خرجت منه معافيا، هذا يعني أنك تقول الصدق وسنؤمن بدينك». في اللحظة التي اندس جان بابا في القدر، أنشأ الحاج الولي بكتاش يحفر في الأرض فانبجس نبعاً. تكلم النبع: «يا أمير المصطفين، قال، من كلمتك الأولى انبجست من مدينة نيسابور، بخراسان، وقدمت إلى آرغييس، ومع طلبك الثاني درت سبع مرات حول بركان آرغييس، ومع كلمتك الثالثة خرجت من الموضع الذي نبشته». تناول المعلم شيئا من المياه بين راحتيه، نثره على الأحجار الحارقة التي تحيطه، وارتفع البخار إلى السماء. حينما سئل عما يفعله، أجاب: «وضع الخان قاووس قارادونلو جان بابا في الماء المغلي، وهكذا أصبح ماؤه باردا». خلال الثلاثة أيام، أخذوا يرفعون غطاء القدر وينظرون. وماذا رأوا ؟ قارادونلو جان بابا، مقرفصاً، يتنفس في سكون».

مكثت طويلا أمام القدر ذي السبعة مقابض. الصوت الذي همس لي بهذه الحكاية، أجمل حكايات ولايتنامة، صمت على حين غرة. فكرت في الانكشارية، قاطعي الرقاب، الذين قلبوا قدورهم لذكرى الحاج بكتاش. أذكر بعض الابتهالات التي كانوا يرددونها وقت ذهابهم إلى الغزو:

تقاليدنا أتتنا من الحاج الولي

بكتاش

من يجازفون برؤوسهم ليأتوا

من هنا

لا أيادينا، ولاألسنتنا، ولا كلواتنا

سوف تخون

سنكتب الوصية وننتظر الموت

ينسلون أمام السلطان، برؤوسهم الصلعاء وشواربهم الكثة. كانوا يتركون خصلة شعر في أعلى جمجمتهم، أسموها ذيل الحصان. يد على الزنار، والأخرى أسفل البطن، يتقدمون، على دق الطبول والمزمار، فيما يتوقفون كل خطوتين لكي ينظروا إلى الخلف. إذا جاء فوج حديثي العهد من المريدين، يتابعون سيرهم، ولا يقولون : «نرفض السير !»، يقلبون القدور، يسحبون سيوفهم، ويرفعونها إلى أعلى رؤوسهم :

حاج بكتاش ، معلمنا ، يحرك

الحوائط بدون حياة

يصلي لأجل الجيش ومعجزاته

لا تعد ولا تحصى

على الدوام هو العلامة الفارقة

لجنود الانكشارية الظافرين

وشعارنا معه رايتنا والقدر

الأسود

مغادراً المطبخ، أتجه إلى المسجد الذي يجاوره. لم يكن هذا مكانه، في صومعة البكتاشيين، الذي يقيمون عبادتهم بالجذب وليس بالصلاة. في عام 1826، بعد أن قصف بالمدافع بيت الانكشارية وأغلقه، ولّى على المكان شيخاً ينتمي إلى الطريقة النقشبندية. كانت هناك يافطة صادرة عن وزارة الشئون الإسلامية، معلقة على الحائط. قرأتها مندهشا :

«بموجب الدين الإسلامي،

يحرم في الضريح :

1- صياغة الأمنيات.

2- ذبح الخراف.

3- إشعال الشموع.

4- عقد الخرق.

5- لصق الأوراق المالية.

5- الدخول منحنياً على أربع.

7- إلقاء الحجارة.

8- ترك المواد الغذائية قابلة التلف.

9- لمس الأشياء سواء باليد أو الوجه.

10- التمدد.»

يقوم قومنا بعمل العكس. نعم، يتمنون، يذبحون الخراف، يشعلون الشموع، يعقدون الخرق في الأشجار، يلمسون بأياديهم ووجوههم عتبة الضريح ويدورون على أربع حول التابوت الحجري. المرضى يصلّون لكي يشفوا، الشحاذون يطلبون الخبز في الفناء، ذوو العاهات وأناس يرتدون

الأسمال. إنهم مرهقون، يائسون، عميان وعرجان، إلى درجة نعتقد أنه جيش منكسر.

ماذا رأيت أيضاً في بيت المعلم ؟ في ضريح الحاج بكتاش، حيث نبلغه عبر ممرات متعرجة وفناء رطب، نرى في بادئ الأمر توابيت الشيخ ومريديه مكسوة بنسيج أخضر، ثم خزانات زجاجية معروض فيها شمعدانات، ومصابيح، وأكلمة منسوجة يدوياً، وإطارات، ورايات وأشياء مقببة، وقصعات في حجم البابوج(6)، مسعط، حاكة الظهر، هذه الزنانير والحجارة من تلك التي يحملها الدروايضلش على نحو شعائري، جلود الفهود، حافظات ومباضع تجعلنا نتساءل عن فائدتها. وكذا أبسطة الصلاة التي يجتاز المعلّم بها كيزليرماك ويطير حتى مكة والمدينة، بل وحتى السماء السابعة لكي يقابل النبي. في ركن من الأركان، نرى أيضاً رقائق عاجية على شكل وجوه تحمل نقش «الله ـ محمد ـ علي» واسم الحاج الولي بكتاش متشابك الأحرف. وأخيرا صور المعلم، معتمرا اكليلا ومرتديا رداء الدروايش، يربت بيد على أسد فيما الأخرى على غزالة. تعبر أرضية صالة الاحتفالات الخشبية، في كل مساحتها ـ حيث الاحتفاء بالدخول إلى الطائفة، تداول السر، المساراة وحالات الجذب الجماعية ـ عن الاثنى عشر مرتبة. على الحوائط، ترتسم عينا «العشق» الدامعتين. آية عن العشق الالهي مكتوبة بالخط الكوفي على رقعة غزال تنبسط على اطار فني. في صورة، تحت الزجاج، علي يمسك لجام الجمل ويحمل جسده. وفي نفس الوقت، يأوي إلى تابوت ويقود الجمل. أذكر الحاج بكتاش قادما على فرس أغبر كي يغسل جثمانه بنفسه. في فناء ضريح بالم سلطان (7)، تنتصب شجرة توت أسود ذات جذع ضامر، عجوز كما الآناضول. يذكر أنه، من حطبة

متأججة، سيخرج شيخ من النار ويلقى به نحو تركيا. كتب في ولايتنامة أنه انغرز هنا من خلال حق أحمد، مريد جيم سلطان في قونية. غير أنه لم يكن ذا شأن ببالم سلطان. بفضل مصادر أخرى علمت أن بالم سلطان قدم من ديموطوقا، حاصلا على أعلى مرتبة سامية في الطائفة من قبل باديشاه[8]، وأنه إذا كان سلطان ولد[9]، ابن مولانا ، وطد قواعد طائفة المولوية ، فإن بالم سلطان ، القادم من رومليا[10] وليس المعلّم ، مَن نظم مبادئ البكتاشية الأساسية.

غادرت التكية بدون أن ألتقط أنفاسي تحت شجرة التوت. حينما بلغت الصومعة، هبط الليل. كان هناك جمع من الناس يقوم بذبح الخراف، يشوون اللحم أو يعقدون الخرق في أشجار التنوب التي تمثل الأمنيات. في الهواء المتردد رائحة الدم. بعيدا، في كهف، يستحثون خطاهم أمام الفجوة التي اعتكف الحاج بكتاش فيها أربعين يوما، وظهر وهو يحطم الصخرة. يضعون الشموع ويخرون مقبلين مدخل الكهف. في الأسفل، كان منحدر الجبل مغطى بالخيام. قيل أنهم سيوزعون حلوى التابيوكا بالعنب. اتجه سنان إلى مكان التوزيع، وبالنسبة لي، وقفت أتأمل تمثالاً لشاعرين شعبيين يحيان السهل، أحدهما يلعب على آلة الساز التي وضعها على ركبته والآخر، واقفاً، ماسكاً بيده ساعد آلته الساز. إلى جانب قاعدة التمثال، كان منقوشاً على المرمر أسماء الثلاثة وثلاثين مثقفاً تركياً احترقوا أحياء في سيفاس بعد انفجار 1993[11]. كان من ضمنهم الكثير من أصدقائي وأعرف عدداً آخر وأوقرهم كثيراً.

الاضطرام في النار وليس في الحديد

القداسة ليست في الثوب ولا في

التاج

أياً كان ما تبحث عنه ، ابحث عنه في داخلك

وليس في القدس ، في مكة أو في الحج.

هكذا قال الحاج بكتاش. ولهذا انسحب إلى هذا الكهف والتزم بهذه الرحلة الطويلة والصعبة. أطلق على القمة، الواقعة إلى جانب المنحدر حيث يوجد الكهف، اسم عرفات، وأطلق اسم زمزم على المنبع المجاور حيث ارتوى. في الأسفل، يمتد السهل إلى ما لا نهاية. قمت بهذه الرحلة لكي أكتشف الأماكن التي عاشها المعلّم، قررت أن أتبع خطاه، مثله، في داخلي نفسها. وبينما تحترق حزم القش في القرية، هبط الليل على ضيعة سولوقا قراهويوك .

***

جذب الحفل الذي نظمته بلدية القضاء جمعاً كثيفاً أخذ يتدافع في الشوارع حيث تعرض مناضد البيع كافة التذكارات، شرائط كاسيت وطلاسم زجاجية، تصوّر علي، صهر النبي، وقمصاناً عليها صور الحاج بكتاش. بالنسبة لنا، نفضل أن نعدل عن البرنامج الرسمي المقدر. لا نهتم بالطاولات المستديرة، المعارض والندوات الأخرى التي تدور في أماكن خاصة نوعا ما، ولكن على وجه الخصوص التجديد الرسمي الذي عرفته الثقافة العلوية-البكتاشية اليوم. بفضل تدخل صديقي العجوز آتيله أردن، رئيس فيدرالية الروابط العلوية، كنا ضيوف حسين حوريم أولسوي.

ينتمي حسين بك إلى عائلة، كما تبدى لي، ترجع جذورها إلى الحاج

بكتاش. كان جده أحمد صلاح الدين جلبي معلّم الطائفة الأكبر، وبالتالي آخر حلقة في سلسلة تصل إلى الحاج بكتاش. وفي بيته، أقام مصطفى كمال (أتاتورك) عند عودته من مؤتمر سيفاس حيث، في سبتمبر من عام 1919، وضع قواعد الجمهورية التركية. معاوناً مقرباً من الرئيس، وضع كل ثروته تحت إمرته خلال حرب الاستقلال. نراه على حصان، في الصورة التي تتصدر حائط الصالون الواسع فيما الخزانات، كما هو واضح، من صنع نجار آرميني. كان صاحب هيئة صارمة وواثقاً من نفسه. كان يرتدي قولباكا يشبه طاقية الدراويش وعيناه تتلاشى في البعيد. نتخيل آثار التعب التي ولدتها نشوة الرقص الطقسي المصاحب بالغناء الذي يتخلله «هو» (الله). في الأسفل، صورة مصطفى كمال موقع عليها «إلى الوقور جلبي أفندي». وهكذا، اجتمع شيخ ومؤسس الجمهورية التركية العلمانية هنا. بعد تغيير الكتابة، قام جلبي أفندي بتعليم الأبجدية اللاتينية إلى سكان الدائرة. وكذا اللغة الفرنسية التي يجيدها باتقان.

احتللنا أماكننا في فوتيللات صالون حسين بك الواسع ذي السقف العالي، تحت اللوحات التي رسمها والد مضيفنا، محاطين بالضيوف القادمين من أركان بلادنا الأربعة ، دوزس، آنقرة، سيفاس وكيساس، القرية العلوية الوحيدة في اقليم أورفا. لم يكن هناك ما يكفي لكي يتمكنوا من ممارسة الرقص الطقسي، غير أنني استسلمت إلى حركات الأناشيد البكتاشية التي لم أسمعها من قبل. مصاحبة بآلتي الساز والكمان، كان كل نشيد أجمل من سابقه. أغلق عيني وأرى ظهور جمع من الرجال والنساء يربطون رؤوسهم بشرائط كتب عليها «يا علي»، ويدورون، يدورون بلا نهاية. وقصائد صدقي بابا، الشاعر

المعتمد لدى شيخ أحمد صلاح الدين جلبي، ترن في أذني :

من اختار معرفة الذات

أسميناه معلّم المعرفة

من حفر واجتاز الجبال

يقال له أحسنت الصنع يا فرهاد.

في الفكر الصوفي الآناضولي، كل شيء يرجع إلى فكرة انعتاق الذات من نفسها، «أناها»، كما يقال اليوم. يتعلق الأمر بالتحرر من شخصيته لكي يبلغ الذات العليا، الله، أو الرفيق، حسبما يفضل. هذا الشكل التوحيدي يأخذ معناه من «انعتاق الجبال من شخصيتها». قال يونس امره: «لا تقل أنني في ذاتي/ هناك أنا في أنا أعمق من أناي». وفرهاد، بمعوله، يحفر الجبال كي يزود شعب آرسن المريض والفقير بالمياه. لا أحد في حاجة إلى الاختيار بين ناظم حكمت ويونس امري. كلاهما ينتميان إلى ثقافتنا ولا نستطيع أن نرفض واحداً لأجل الآخر. في قصيدة يونس، يحفر فرهاد الجبال لكي يسيل «ماء الحياة» واذا رفع معوله، لكي يخرج من ذاته، بينما في «فرهاد وشيرين» لناظم حكمت، فإنه يحمله بحثاً عن علاج لعذابات الناس، لكي يشفيهم من الأمراض ويضمد جراحهم.

في هذه اللحظة، احتسينا الراكي ونحن نستمع إلى أناشيد عاشق صدقي بابا، نتنشي مع حسين حوريم، الذي خلّد القاعدة البكتاشية التي ورثها عن جده، آخر معلّم للطائفة. الأقداح الممتلئة بعناية ترتفع بتحية العشق الالهي. كما تعبّر عنها قصيدة بكتاشية : «إذا شربنا حتى الثمالة، نغوص في المحيط». ثم غرقنا في نقاش حول سيرة الحاج الولي بكتاش وحول العلوية، واستطردنا

عن عشق محمد وعلي والمشاكل الراهنة. حسين بك قارئ نهم لمجلة «أطلس» ومفتون متحمس للطبيعة. يدّرس التركية في آنقرة. كان حوارنا مناسباً «لحوارات بالم سلطان»، ننعم بها ولا نكف عن الاستماع إلى آلة الساز. كانت المقاطع الغنائية للشاعر الذي يغني ويلعب على آلة الساز، الجالس إلى جانبي، معبقة بالحكمة ومع كل تساوق نغمي، يتملكنا الاحساس برؤية عودة الشيوخ المطرودين من طوائفهم من خراسان. ولجوا جميعاً الرقص، في بادئ الأمر خوجا أحمد يسوي، معلّم المعلّمين، ثم بابا الياس، مريده المتمرد، الذي أرسله إلى الآناضول، والمعلّم، الحاج بكتاش، الذي «يسيل سبعة أنهار في سبعة بحار» كل يوم، وطابطوك امري «ويونس امره الذي نشر عقيدة طابطوك «في الاقاليم التي بلغها»، وهو ذا عبد الله موسى[12]، الذي حرك الجبال، ومريده قايغوسوز عبد الله، شمس تبريز، الدرويش، مولانا، رفيقه، صديق روحه، يأتيان في دورهما، يتبعهما بير سلطان عبد الله، الذي شُنق في سيفاس، وآخرون. وقد التقت أصواتهم بصوت الشاعر الذي يلعب على آلة الساز إلى جانبي، يغني الشيوخ القادمون من آسيا الوسطى بصوت عال مغامراتهم، وعلى وجه الخصوص هذا العشق الرائع الذي أسالوه. تتسارع وتيرة الحياة، ليست سوى صرخة، وأكثر من طريق يفضي إلى الحاج بكتاش !

حاج بكتاش، 2002

الهوامش

1- ميتين آلتيوك (1941-1993)، شاعر، ضحية التفجير المرتب في سيفاس، في 2 يوليو 1993. صدرت ترجمات لبعض قصائده إلى الفرنسية، ضمن «آنطولوجيا الشعر التركي المعاصر»، (مطبوعات بابليسود 1991).

2- خوجه أحمد يسوي (1093-1166)، ولد في سيران (كازاخستان) وتوفي في ياسي (تركستان، بكازاخستان). علاّمة، داعية، شاعر متصوف ومربي كبير. مؤسس الطريقة اليسوية التي أدت دورا كبيرا في الحياة الروحية لأبناء آسيا الوسطى (المترجم)

3- طابطوك امري، معلم أسطوري لطريقة الدراويش خلال القرن الثامن، موجه يونس امره.

4- الشمانية، عبادة الطبيعة والقوى الخفية في آسيا الوسطى. (المترجم)

5- قايغوسوز عبد الله أو غيبي (1397 - 1453)، درويش من أتباع الطريقة العلوية ـ البكتاشية. مريد الشيخ عبد الله موسى وشاعر يميل إلى التعبير عن الصور المفارقة بلغة قوية. (المترجم)

6- حذاء بلا كعب، والكلمة من أصل فارسي. (المترجم)

7- بالم سلطان (1473 - 1516) . بعد قرون ثلاثة من وفاة الحاج الولي بكتاش، أعاد تنظيم الطائفة البكتاشية، والتي ينظر اليه أتباعها على أنه البير، أي القديس الشفيع.

8- العامل بأمر السلطان . (المترجم)

9- سلطان ولد (1226 - 1312)، ابن جلال الدين الرومي الذي سيعمل، بعد وفاة والده، على تأكيد طقسية رقص الدراويش ويصدر العديد من الكتب، ومن ضمنها «الكتاب الأخير».

10- إقليم أدمج إلى بلغاريا . (المترجم)

11- في الثاني من يوليو 1993، قام عدد من الأصوليين بتفجير وإحراق فندق «ماديماك»،

الذي يقيم فيه حوالي 33 فناناً ومثقفاً خلال اجتماع يضمهم ، بمدينة سيفاس، التي كانت تحتفل آنذاك بمهرجان بير سلطان عبدالله الثقافي Pir Sultan Abdal Kültür Festivali . (المترجم).

12- عبد الله موسى، من خراسان، عاش في الآناضول خلال القرن الرابع عشر. مريد الحاج الولي بكتاش، أسس ضريحاً في قرية التكية (اقليم آنطاليا) حيث يوجد قبره إلى اليوم.

حينما أخذنا طريق آنطاليا، لم يكن النهار قد طلع. كان الهواء خفيفا. أشرقت الشمس، بغتة، بدون دعوة. وجبال بيداغ تنتصب أمامنا بروعتها الكاملة. تُرعش رؤية هذه الجبال بدني. أشعر في دواخلي برعشات الأرض لحظة الخلق. يخفي الهبوط المدوخ لهذه الجبال الشاهقة نحو البحر وصعودها بدرجات صوب السماء تحديا لقوانين الطبيعة، سراً لن يكتشفه الانسان أبداً. صخورها مسننة وأعماق واديها مخيفة نوعا ما. في الشتاء، قممها مكسوة بالثلج دوما وفي الربيع، قبل قطرات المطر الأولى، تغطي السحب البيضاء ذراها. في الصيف، وقت الحرارة المحرقة، تتبدى كواحة بعيدة زرقاء ونيلية اللون. والليل المرصع بالنجوم يغطي في بطء منحدراتها.

هذه الجبال تنتصب أمامنا كعقبة متعذر عبورها. لن نتسلقها حتى نبلغ قرية دراويش عبد الله موسى المتجولين حيث ينتظرنا مريد للحاج الولي بكتاش في صومعة تكية المالي. قرأت في المصادر القديمة أن عبد الله موسى عاش في زمن أورخان بك، وفي عام 1326 اشترك في حملة بورصة مع غيكلي بابا [1]،

وأنه، قادما إلى هذا الاقليم كي ينشر في أرجائه النزعة البكتاشية، أنهى حياته في التكية. امتزج اسمه بأساطير عديدة وشعراء كثيرين نظموا القصائد إكراماً له، غنوا الأغاني ولعبوا على آلة الساز. قلّده بصورة مثلى بعض الدراويش. على وجه الإجمال، قبل أن أتجه إلى المكان الذي عاش فيه، تملكني الشعور بأنني أعرفه. متجهاً إلى زيارته بعد أكثر من قرن على وفاته، أرى مغامرات دراويش الآناضول الجوالين تتوالى أمام عيني «كالفيلم». أرى ثانية أماكن رحلاتهم الطويلة، من سهوب آسيا الوسطى إلى الآناضول وإلى بلاد البلقان.

ولي تركستان، كما سُمّي أحمد يسوي أيضاً ـ الذي، حينما بلغ نفس عمر النبي وقت موته، انسحب إلى بير مغطى قاعه بأحجار من الآجر الجاف حيث بقي داخله حتى أيامه الأخيرة ـ، أعطاهم الاذن بلقاء الأتراك الرحل الذين يتجهون نحو الغرب، على مراحل، واستقروا هنا، بقبعاتهم الطويلة، وسيوفهم الخشبية، وملابسهم البيضاء ومعتقداتهم الباطنية. أسسوا التكايا وأنشأوا ينشرون تعاليم معلمهم خوجه يسوي. انكبوا على رقصهم الطقسي الذي يذكّر بطيور الكركي خلال الطيران. حينما يكفون تنتهي الحياة أيضاً، وحينما ينطلقون، تبدأ الجبال تتحرك. حينما ينتشون، يتضرعون إلى الله صائحين «هو! هو !»، يخرجون من أنفسهم ويقتربون من العالم غير المرئي، يصبحون أسماكاً في المحيط وجمرات في النار. حملان طوراً، أيائل طوراً آخر، أسوداً أحيانا. متطهرون بماء زمزم، كانت حميتهم مستثارة بحب علي. صبوحون ومتواضعون، يقومون بالمعجزات. في صوامعهم، هؤلاء الدراويش يحلقون شعورهم، ذقونهم، حواجبهم وشواربهم، ويعلقون قصعة في رقابهم. يتعاملون بطيبة، بعدل وانسانية، وبفضل معرفتهم، يمسون قلوب الناس.

يتضاعف عددهم مثل العرائس الروسية التي تحتوي الواحدة على أخرى وهكذا دواليك. كان المعلم الحاج الولي بكتاش، القادم من خراسان على هيئة حمامة كي يقطن سولوقا قراهويوك، أكثرهم شهرة. عبد الله موسى أحد مريديه. من بين الإثنى عشر مرتبة من مراتب طائفة البكتاشية، كان يحتل المرتبة الحادية عشر، مرتبة الخادم.

من يعرف من أية سلالة قدمنا
لم نأت من نار ولا من ماء
نحمل الكلام الحكيم
قدمنا من خوي، من خراسان
إذا وددت حقاً أن تعرف من أين قدمنا
نصلي في صحراء سيناء حيث توقف موسى.

كما قال في إحدى قصائده حيث كشف عن أن أجداده من قرية خوي، باذرابيجان. يذكر نشيد البكتاشية الطائفة بهذه الكلمات:

نعم، قادماً من خراسان، بلغت بلاد
الروم
أليس معلمي الحاج الولي بكتاش
من جعل الحوائط الجامدة تتحرك
أليس معلمي الحاج الولي بكتاش
من نقل الكلام المهيب
إلى ستة وتسعين ألفاً من معلمي
خراسان

إلى سبعة وخمسين ألف مختار بالآناضول
أليس معلمي الحاج الولي بكتاش
رفيق طريق بالم سلطان
صنو كيزيل ديلي سلطان
معلم عبد الله موسى
أليس معلمي الحاج الولي بكتاش.

قرأت في «ولايتنامة» سيرة سلطان عبد الله موسى وقررت أن أسمع الحكاية التي يسميها العلويون الذين يسكنون ضواحي مدينة المالي «طهطاجي». هذه الأساطير اجتازت الزمن، وصلت الينا واحتلت موقعها في المخيلة الشعبية كما احتلت من قبل التقاليد الشفاهية. عندما بلغنا التكية، سمعت أكثر من ترجمة من فم درويش بكتاشي، حسين أريش، حارس الضريح. كنا أربعة في الميني باص في اتجاه اذاعة آنطاليا : نوري أرقال، نسريهان باقل، السائق وأنا. وقد وصلنا إلى دوسلرجامي، اقترحت أن ندور دورة عبر تيرميسوس، التي لم ينجح أحد، ولا الإسكندر الأكبر نفسه في غزوها. باجتياز الغابة الصنوبرية بالحديقة العامة، بلغنا المدينة العتيقة، وبعد أن زرنا الأطلال، تابعنا سيرنا نحو المالي. ولكن، كإجابة، ألقى نوري أرقال هذه القصيدة لعاشق ولي :

سواحل البحر المتوسط المتلألئة
تطير كما الطيور نحو مولانا عبد الله
موسى
على مرأى بصره تتحرك الجبال
تتجه الأحجار نحو مولانا عبد الله
موسى

تحيد طيور الكركي عن خط طيرانها
في كل لحظة قلبي ينضغط
حمل ، خراف ضخمة وكباش
تتجه نحو عبد الله موسى
استلهم حمية بابا قيغوسوز
ومعرفة ابراهيم آدهم
تخلى الأباطرة عن عروشهم
وتيجانهم
واتجهوا نحو عبد الله موسى
قال سيدي أن للسيد عبد الله موسى
بكتاش
حق تصدر الطائفة
من عيني ينبثق سيل من الدموع
حيث الأمواج تثب نحو مولانا عبد الله
موسى

إذاً، كان هدف رحلتنا زيارة عبد الله موسى. مثل الطيور، الحملان والجبال، نحن أيضاً نتجه اليه. رددنا على نداء السيد، نحن أيضاً أخذنا الطريق. قبل قرقوتلي، مررنا على مدفع غوفر. في الأسفل، نلمح الهوة ومجرى مياه جاف وفي الأعلى تحلق طيور الدراج. حينما أدركنا السهل، التقينا بشاحنات محملة بالتفاح. كانت قادمة من المالي، مدينة التفاح، كاسم على مُسمّى.

* * *

من أربعة أركان البلاد، تحمل الشاحنات التفاح الكبير، الأحمر والريان. عبر نافذة الميني باص، رحت أنظر إلى منظر اللقاطة والروابي كثيرة الحجارة. أشجار حور رقيقة تتراقص في المجاري الجافة. حينما مشى عبد الله موسى نحو القمم التي تواجهنا، هل ستتحرك أشجار الحور خلفها ؟ من يدري ؟ ربما كان الشيخ يأمر الأحجار وليس الأشجار. أستدعي «ولايتنامة» :

يذكر عبد الله القادر على كل شيء، ثم يقول : «من يحبني يتبعني !»، تبعته الجبال والأحجار. يتوقف في مدينة غنجلي، لأن هناك عجوزا تمتلك بقرة، دوما زودته من لبنها. اقتصدت العجوز ثمن بيتها. بدأ الفقراء الحديث. «سيدي السلطان، الجبال تتحرك»، قالوا. قال عبد الله موسى : «قف أيها الجبل، ليكن قبري قربك»، وتوقف الجبل. غير أن الأحجار كانت لم تزل تتحرك دوما. «سوف تأتي»، قالوا. وهكذا قال عبد الله موسى : «ألا تريدين أن تتوقفي؟»، ضاربا الأرض بعصاه السوداء، توقفت الأحجار وبلغ هو ونفسه ورفاقه بلدة تكه بك.

قبل أن أصل، أنا نفسي، إلى تكه بك، أود أن أحدد بدقة هذه النقطة : لدى أهل السنة، ليس هناك معجزات. محمد (صلى الله عليه وسلم)، مثلكم ومثلي، مخلوق بسيط. اختاره الله لكي ينقل كلامه لأنه يحبه. بينما في التقاليد الصوفية، تتحرك الأحجار والجبال لأن شيخاً صانع معجزات أمرها. بالتأكيد، كُتب في القرآن أن الجبال سوف تتحرك. بيد أن بشير الله سوف يمتلك سلطة تحريكها. وهي ستكون إحدى العلامات المبشرة بيوم القيامة. أيا كان الأمر، بينما نتجه لزيارة عبد الله موسى، لم تتحرك الجبال والأحجار من مكانها. ولم تتبعنا أشجار الحور. قبل أن تأخذ الشمس في حرق منحدرات الجبال، في مناخ لطيف وندي، وصلنا المالي.

***

في هذه المدينة المستسلمة لسطوة جبل عار، لاحظت في بادئ الأمر أشجار الحور. مخضوضرة، تصطف أسفل الجبال وتتأرجح مع الرياح. قلت في نفسي من اللازم توفر نبع مياه في هذا المكان. إذا لزم الاعتقاد بالأسطورة، حَوَّلَ عبد الله موسى بحيرة تحت الأرض تمد المدينة بالمياه، تسقي أشجار العنب والسهل، وتشغل الطواحين التي تكثر في الاقليم. لم أخطئ. لم أر البحيرة، غير أنها كانت في حكاية الشيخ علي بابا، حارس ضريح عمر باشا قطنجي، مصلح البوسنة. بمدرسته ذات القباب المصنوعة من الرصاص، والتي تستغل في الوقت الحاضر كمكتبة شعبية، ساحتها الخالية، نبعها وأشجار صنارها، ظل هذا البناء وسوف يظل محفورا في ذاكرتي، مثل هذا المسجد ذي القطع الخزفية الزرقاء المقام في هذه الضيعة الآناضولية. أعتقد أنني لن أنسى أبدا هيكله ذا النجمة السباعية المزينة بالأغصان، أوراق الشجر التي أخذت شكل الخنجر وجذوع نحيفة لزهور تيوليب تتمايز على خلفية زرقاء عريضة، زهور المرجريت وزهور أشجار الرمان. لا شيء أكثر من دكان حلاق عتيق ومحل أبسطة في البازار القديم الذي يقابل الضريح والذي يتبدى أنه يرجع إلى عصر «الفتوات»، إلى عصر طوائف الحرفيين. لبلوغ هذا العالم الصامت الذي ظل على ثباته والذي يحملنا كما الحلم إلى الماضي، من اللازم أن نترك خلفنا عمارة آنطاليا الأسمنتية، السائحين القادمين لكي يحصلوا على لون البرونز لأجسادهم تحت شمس الشواطئ، ونتجه إلى جبال بيداغ.

في المالي، تعارفنا بسرعة على مريدي عبد الله موسى مع قراءة الكتابة المثبتة على ساق شجرة صنار تنتصب في ساحة المسجد: «شيوخ وأبرار المالي». من أخي بابا إلى بلطجي غيدك، من وهاب أومي إلى قايغوسوز عبد الله، تسعة

أسماء مدونة هنا. أضيف إلى القائمة أسماء المنتصرين في معركة قبرص. أمقت هذا الرأي القبلي للايديولوجيا العسكرية التي تسترد الشيوخ القادمين من خراسان، بينما يحملون سيوفا خشبية حتى بعد الاستيلاء على القسطنطينية. عبد الله موسى أحد مريدي الحاج الولي بكتاش، الذي وصل الآناضول على هيئة حمامة، وليس بطل حرب دموية، ولو أنها سميت «عملية سلام قبرص». أيا كان الأمر، وقد بلغنا منحدر الجبل، قبل أن نذهب لرؤية قبر أومي سنان[2]، قام أحد الشيوخ العلويين بتعريفنا على إمام مسجد عمر باشا، الذي أنعش ذاكرتنا لما حكى حكاية نيازي مصري[3]، أحد مريدي الشيخ.

ذات ليلة، رأى مصري في منامه عبد القادر الجيلاني[4]. «أعرف»، قال الجيلاني، «إنك في حاجة إلى مرشد روحي. هذا العالم سيئ. في كل مكان تهيمن اللا مساواة، الظلم، البؤس والعوز. هذا العالم ليس عالمك. لن تجد ما تبحث عنه في أحضان العنف. اذهب إلى بلاد الروم، اذهب إلى العثمانيين. هناك ملك عادل، الناس لطفاء، رجال الله متسامحون. ما تبحث عنه ستجده فيما وراء الجبال».

شق مصري طريقه، تابع سيره من جميع الجهات. التفت خلفه وماذا رأى؟ لم يتقدم بوصة واحدة. غير أن همته لم تثبط. يعرف أنه سوف يدرك هدفه، سوف يجد مرشده الروحي، سوف يعتكف معه ويتطهر. قبل أن يحط رحاله في المالي، ماضيا الليل في نزل، حلم حلما ثانيا. وحيدا في السهب، يغمره صمت كامل. لا قافلة. هبط الليل وظلمة كثيفة حطت على المكان الرحب. مع ذلك تابع خطوه بدون أن تثبط همته، بدون أن يتشكى وفجأة وجد نفسه، وقدماه غارقتان في الدم، وسط جمع كبير. في حي المبيضين، أدخل بيده إبريقاً في منقش.

«أتيت للاشىء،» قال الصانع، «لن أستطيع أن أطلي بالقصدير غير هذا الجزء الخارجي لهذا الإبريق ولن يشفع لك وضوءك ولا صلواتك. ولكن في المالي هناك شيخ يدعى أومي سنان، سنان الورع، هو وحده يستطيع طلاء الجزء الداخلي».

في صحوه، امتلكه الإحساس بأنه أصبح ابريقا نحاسيا صدئا بأكمله وممتلئا بنسيج العنكبوت. يستلزم الأمر أن يتطهر من وسخ هذا العالم، أن يطلى بالبياض. مثل كثير من الدراويش الجوالين في أرجاء المعمورة، يمشي ليلا ونهارا وحيدا في السهوب. أخيرا، ظهرت الجبال أمام عينيه. والمالي تقبع خلف هذه الجبال. قال «تبدّى أمامي المكان الملائم/ المالي، دوائي، على مرمى البصر». بلغ تكية أومي سنان، يخر على العتبة، يقبل يد الشيخ الطاهرة ويصبح أحد مريديه.

وصلنا نحن أيضاً إلى أومي سنان. الأبيات المدونة على مدخل التكية تسمح لفهم لماذا قطع مصري كل هذه المسافة حتى يصل إلى هنا:

إذا قدمت لمعرفة الحقيقة

وسألوك عما كشفته لك

الذات العاشقة لله لن تجد

لذة العشق في الشره.

أعلى ساحة داخلية صغيرة يجملها ينبوع مياه، توجد صالة النزل. وجناها. على الحائط، المقام بأحجار الجبل، نقوش بحروف عربية، مرسومة بالذهب على الجلد، تشير إلى عبد الله موسى.

***

حسين أريش، درويش بكتاشي، استقبلنا في المنحل، مدخل التكية التي يعمل حارسا عليها. لم يستقبح زيارتنا المرتجلة. قلت إنه شيخ، غير أنه من غير الضروري رؤية شيخ معمم ذي لحية بيضاء. حسين شاب وذو هيئة عصرية. غير لصوق بعقيدة البكتاشيين . صرح أنه يلعب على آلة الساز ويمارس الرقص الطقسي.

- يمثل جزءاً متمماً لقاعدتنا. لا يمكن أن تتخيلوا كل ما يشير اليه.

- على سبيل المثال، ماذا ؟

- يشير إلى أننا عندما ندور في الدائرة الالهية نبتعد عن الأرض كي نتجه إلى السماء وأننا لا يجب أن نميز بين الرجل والمرأة. بعد أن نأكل جيدا، سنرقص ونلقي القصائد.

تناول آلة الساز وبدأ يعزف. ترددت في أنحاء المنحل أصوات متناغمة. تعجلت رؤية صالة الدفن، لكن من المستحيل الدخول اليها قبل الاستماع إلى حسين. جلسنا في ركن. تعبّر آلة الساز عن نوع من نوستالجيا بلا نهاية، أصواتها الحادة والحازمة تؤكد على الدائرة الانتشائية للدرويش الذي، راغبا أن يذوب في الذات الالهية، يتبدد ويفيض في دورانه. تجري أنامل حسين على الأوتار كأنه يقطف ثمار تفاح من على أغصان شجرة تنتصب قبالتنا. على الحائط، صورة تمثل علي ، صهر النبي، على يمينه عبد الله موسى وعلى يساره قايغوسوز عبد الله. كان موسى يعتمر قلنسوة الدراويش. وقايغوسوز يعتمر خوذة ويحمل درعا. ربما لم يكن قد انجذب بعد إلى التكية حتى يكون مريد موسى. كان الطفل المدلل لحاكم علاعية. هدأ ايقاع آلة الساز للحظة،

ثم استعيد بصورة أجمل. فتح حسين أصابعه الخشنة كي يقبض جيدا على ذراع آلته وانحنى عليها. يده اليمنى تضرب على الأوتار حينا، وعلى صدره حينا آخر. تتجه عيناي نحو لوحة أخرى تواجه صورة علي. إلى جانب نقش «الامام علي»، صورة سيف ذو الفقار، وتحته من الممكن أن نقرأ : «لا فتى الا علي ولا سيف الا ذو الفقار». صورتا الحسن والحسين، ابنا علي وأحفاد النبي، غمرهما منظر الكعبة. أتخيل الحسين في معركة كربلاء، جائعا وظمآنا، يصلّي قبل أن يُقتل. تاريخ مجبول بالدم والعنف، يتحرك أمام عيني. آتاتورك، مؤسس جمهوريتنا العلمانية، الذي منع بلادنا من أن تكون حلقة من حلقات هذا التاريخ، يتطلع إلينا، قرب المقعد الحجري المغطى بكليم يوروكي[5] الذي قعدنا عليه. تحت تمثاله النصفي الجصي تبدت كتابة : «أيها التركي: احمد الله، اعمل، ثق في نفسك». عند مدخل الصالة حيث يوجد التابوتان الحجريان ورفات الشيخين علقت صور أخرى لعبد الله موسى وقايغوسوز. هنا، وضع موسى يده على قلبه، بينما يده اليسرى تجذب سهما من تحت ابطه. خلع قايغوسوز خوذته. سأله السيد، على خلاف نظرات مريده المندهشة : «هل هذا هو السهم الذي أطلقته على الأيل ؟». ذات يوم، ربما سوف أحكي سيرة قايغوسوز، ابن البك، الذي لاقى عبد الله موسى في اعتكافه وزهد كافة متع الدنيا. اذ أن أسطورة الأيل ربما تكون أجمل أساطير الطائفة البكتاشية في الآناضول. الآن، دخل حسين إلى المشهد. أضاف كلامه إلى أصوات آلة الساز التي ترددها حوائط التكية. بطريقته يرحب بنا :

أعزائي في المالي
أهلا وسهلا بكم

في تكية عبد الله موسى
أهلا وسهلا بكم
هو (الله)، لنقل هو (الله)! الأبرار
ورود حديقتنا
السيد على الطريق المستقيم
يرحب بكم.

لا أعرف إن كانت هناك ورود في حديقة التكية. رأيت فقط بعض أشجار الحور، شجرة صنار من عمر عبد الله موسى كما يقال، وشواهد القبور. وأيضاً الجبل الذي ينتصب أمامنا، الجبل المجدب الذي تحرك بنظرة من السيد وتوقف بأمره. بتواضع، بدون شك، لم يبن عبد الله موسى تكيته على منحدره. قال للناس «كونوا لطفاء ومرحب بكم» لكي يلهم الدراويش. هذه الوصية منقوشة، بين أخريات، على حوائط الصومعة. أحلم بالعصور القديمة، وقت كانت التكية مستقلة بذاتها وكان الدراويش لا يكتفون بالصلاة، وانما يعيشون من عملهم. ألم يقل عبد الله موسى في وصاياه: «لا تبدد الوقت»؟ أذكر ما كتبه أوليا جلبي في كتابه «سياحتنامة» تحت عنوان «زيارة إلى عبد الله موسى، سيد الدراويش ذوي الجلاليب الطويلة»:

على منحدر الجبل هناك مئات من المنازل. إنه ضريح عبد الله موسى. يرمم سكانه التكية، يعدون الطعام والشراب. دُفن عبد الله موسى، نحو مكة، تحت قبة كبيرة ومدببة، وسط هكتارات من أشجار العنب. آيات قرانية منقوشة على جوانب التابوت الحجري الأربع. (...) تنتصب القبة وسط حديقة، في داخلها يوجد النزل وغرف السكان، المطابخ، أماكن العبادة، قنوات المياه، المقصورات. (...) نضمن أن

النار لا تنطفئ أبدا في هذه التكية. هناك أكثر من عشرة آلاف بغل، أكثر من ألف بقرة، سبعمائة فرس، سبع طواحين، كرمة وحدائق. يؤمن شعب الأناضول بقوة بهذا الرجل العظيم الذي حقق هنا كثيراً من المعجزات.

على الأرجح، يبالغ الرحالة الكبير أوليا جلبي في الأرقام، كعادته، غير أنه يعطي معلومات قيمة عن الوضع الاقتصادي للتكية في عصره، أي خلال القرن السابع عشر. حاليا، تغير الوضع. بالتأكيد، رممت التكية وأعتني بالحديقة، ولكن المنازل الأخرى اختفت كليا. حتى وان لم تكن من الذهب، كما أكد أوليا جلبي، انتزعت القبة من متحف آنطاليا وأعيد تركيبها في مكانها. نراها من بعيد. في قرية التكية التي توجد بعد ضريح الحاج بكتاش والتي تعتبر أكبر مركز بكتاشي في الآناضول، يقام بيت للطائفة بدعم من وزارة الثقافة. يبرهن كل هذا ثبات الثقافة العلوية والبكتاشية في الاقليم. في كل عام، خلال يومي السبت والأحد التاليين للأسبوع الأول من يونيو، تقام الاحتفالات في ذكرى عبد الله موسى يشترك فيها شعراء ودروايش قادمون من جهات بلادنا الأربع. يحمد الله، يجاز الرقص الطقسي، يذكر الله تعالى بصوت عال.

صمتت آلة حسين. ولجنا وكررنا زيارة ضريحي عبد الله موسى وقايغوسوز. كان معطف وعصا الشيخ معروضين في واجهة خزانة. رأيت أيضاً سيفا خشبيا وعصا يرجعان إلى سيدنا الحسين، حفيد النبي. تخيلت أنه خلال هذا العصر، عصر الحروب الذي نحياه، يأخذ هذا السيف معنى جديدا ويتبدى أكثر جمالا. وحسين، كأنه قرأ أفكاري، اقترب مني وقال:

ـ هذا السيف يعجبك أكثر من أي شيء آخر!

قول صائب، يا حسين، هذا السيف يعجبني أكثر من كافة الأشياء

الأخرى. وأيضاً، كما هو واضح، آلة سازك، حوارك وضيافتك. في إحدى وصاياه، قال عبد الله موسى : «لا تحزن من أجل العالم». من الواجب أن نترك لأطفالنا عالماً لا يسبب لهم أدنى حزن.

أنطاليا ـ باريس، 2001 - 2002

الهوامش

1- غيكلي بابا، أب الآيائل. درويش دعم أورخان الغازي، في القرن الرابع عشر، في معركة بورصة.

2- أومي سنان أو ابراهيم سنان أومي (ت.1568)، شاعر صوفي من أصل قرماني أو من بورصة، توفي في اسطنبول.

3- نيازي مصري (ت. 1697)، شاعر صوفي علوي.

4- الشيخ عبد القادر الجيلاني (470 هـ ـ 561 هـ)، الإمام الصوفي والفقيه الحنبلي، الذي يوصف «بتاج العارفين» و«محيي الدين» و«شيخ الشيوخ». وإليه تنتسب الطريقة القادرية الصوفية. (المترجم)

5- اليوروك (بالتركية:Yörük) قوم رحّل مسلمون يتحدّثون بالتركية يعيشون في جبال جنوب وجنوب شرق تركيا. تقلّصت أعدادهم بسبب انتقال الأغلبية العظمى إلى المدن، وباقي حوالي 50 عائلة يعيشون متنقلين بخيامهم ورحالهم. يعتمدون على الماعز بشكل أساسي وينتقلون من مرعى إلى الآخر ليجدوا الحشائش التي تأكلها إبلهم، ومن وبرها يحيكون الأبسطة الملونة. (المترجم)

لم أرفع عيني عن هذا القلندر[1]، هذا الدرويش الجوال، أو على الأقل عن صورته المعلقة على الحائط. يرتدي جلباباً مصنوعاً من قطعة واحدة بدون ياقة وبدون كمين وحَجَرة مدلاة على بطنه. الزنار يحيط بخصره. شعره الأسود المقسوم من النصف يسقط على كتفيه ويلامس شاربه الطويل. إلى جانبه، يلتف ثعبان على شجرة. عند قدميه، قبع مخلوقان مخيفان، أسد وعقرب، ينتظران إشارته. قاوم الاغواء الذي وضعه الشيطان أمامه وانتصر على هذين المخلوقين بقوة ايمانه، اجتاز العقبات، ولكن ما الثمن ؟ اعتزل العالم، انزوى لأيام طوال في عزلة، صلاة وتقشف. على الحائط، نرى إلى أنه لم يتمن أن يحقق «الأربعة مظاهر»، بقول آخر لم يحلق الشعر، الحاجبين، الشارب واللحية، كما يفعل القلندييون، بل اكتفى بحلاقة اللحية.

بلا ندم
حلقت هذه اللحية
كي ألاقي أصدقائي
سأحلق ذقني

لما انتهيت منها

غنى عندليب

سيقول الحلاق : كفى

سأحلق هذه اللحية

أنا قايغوسوز عبد الله

بدون أن أتردد للحظة

سأصبح بلا لحية

سأحلق هذه اللحية

عند عودتنا من المالي، فكرت في صورة قايغوسوز التي رأيتها في منحل تكية عبد الله موسى. أتذكر صورة أخرى له، معروضة في متحف طوبقابي، باسطنبول. إذا كان من الضروري أن نعتقد مثل عبد الباقي غولبنارلي [2]، أن منمنة لوني [3] الشهيرة تصور قايغوسوز عبد الله يعزف على البوق. على طريق آلانيا، حاولت أن أتخيل علاء الدين، قبل أن يكون درويشاً، حينما لم يكن يحمل بعد اسم غيبي أو قايغوسوز، وكان لم يزل الأمير علاء الدين، الذي يقفز على حصانه، يذهب إلى القنص ويتمتع بمتع الحياة. وقتذاك، بدلاً من اعتمار، كما في صورة لوني، القلنسوة المصنوعة من جلد الجمل، اعتمر بدون أدنى شك عمامة أو خوذة. ربما لم يضع خاتماً في أذنه اليسرى. ولكن بالتأكيد لم يتقلد هذا الزنار بالحَجَرة الحمراء التي تأخذ شكل العجلة. كان مرتدياً القفطان وليس النسيج الأسمر الفاتح والبنطال الضيق. ولا يحمل تحت ذراعه المسبحة والملعقة ذات الذراع الطويلة. بالنسبة لقصعة شحاذ المصنوعة

من جوزة هندية، كأنها ملقاة على الأرض، لا يمكن أن تناسب أميراً. لا نتخيل البتة الأمير علاء الدين متسولاً من باب إلى آخر. كان ابن بك علاعية، حسام الدين محمود، الذي يرجع نسبه إلى نوري الصوفي، مؤسس أسرة قرمان أوغلو (4)، الذي عاضد ثورة الدراويش البابائيين (5) على السلطة السلجوقية في القرن الثامن. لم يكن قد حلق شعره ولا ذقنه كعلامة التحقير والتقشف. على الأقل، لم يلزمه معجزة واحدة كي يتمم هذا التغير. حينما تحققت هذه المعجزة أخذ اسم غيبي واختفى . على وجه الدقة، سوف يولد في عالم جديد. زاهداً عن عالمه، ذي الأكاذيب والعار، غطس في خافية «العالم غير المرئي». ولكننا لم نحدسه. نحن على طريق آنطاليا، كان الوقت ربيعاً ولطيفاً. ولدينا كل الوقت لمعرفة مغامرات ابن بك علاعية.

أي هاتين الصورتين تشبه قايغوسوز؟ صورة التكية أم صورة المتحف؟ ربما لا تشبهانه. لا أعرف لماذا ظننت أنه أسمر وذو شارب كث. أنه من ذرية قرمان أوغلو، على أي حال! ولكن عيناه؟ هل كانتا مغوليتين كأعين السلاطين الجالسين القرفصاء على اللوحات السلجوقية الخزفية أو مدورتين ولامعتين كزيتونيتين ؟ لن نعرف أبداً. بيد أننا نستطيع التخمين بأن بعد دخوله إلى خدمة عبد الله موسى فقدت عيناه بريقهما القديم. نعم، ستصبحان ثقيلتين من التعب وتعبران عن عزلة طويلة. بارتداء الجلباب البسيط والانزواء عن العالم، بدون شك خنق قايغوسوز حبه للحياة ونزق الشباب. منذ الآن، حمل في داخله نزقاً آخر، شبيهاً بجمرة متقدة، بنار تلتهب لفترة طويلة. لا تلمع عيناه، لا يتوقد قلبه. بالتأكيد، قلب ملمع ومصقول جيداً، ولكنه قلب جديد، وليس القلب الذي جعل قلوب النساء تخفق. حينما يكون على الطريق

الحقيقي وقد سقطت الأحجبة أمام ناظريه، سوف تتمرأى الآيات المقدسة في هذا القلب. انمحى تهوره، روحه المتمردة، مذاقه للذة، تدريجياً، تاركاً المكان للعوز، للفقر، للطاعة. حسبما ألفاظه، «قبل الوقوع في الغم وحلق اللحية»، كان شاباً جريئاً، أميراً يغرف بكلتي يديه من خيرات هذا العالم.

مثل كافة أمراء هذا العصر، كان يحب ركوب الخيل، المبارزة، الرماية ، المصارعة والأصدقاء. ومثل كافة الأمراء، كان شرهاً في تحصيل المعارف، لا يكف عن القراءة والتعلم ويجد لذة خاصة في تبادل معرفته. مثقفاً، غير مكتف بالتعلم لمعرفة الكون، يريد على وجه الخصوص أن يحيا، أن يرى وأن يفهم بنفسه. في الواقع اعتقد أنه فهم، ليس عبر الشريعة، عبر الحياة العامة، وانما بالأحرى عبر الطريقة، أصول التقشف، التي أفضت به إلى المعرفة الحقيقية. ولكن، مرة أخرى، ليس هناك من داع للعجلة. لنستمر في تخيل الحياة التي اختبرها قبل أن ينضم إلى طائفة الدراويش. لم تعد آلانيا بعيدة والطريق سالكة. قصر إقامة بكوات آلانيا، على خلاف قصر الشتاء لعلاء الدين كيكوباد، لا يوجد في داخل القلعة، وإنما في أوبا جولوشين. مجتازين الروضة المزروعة بأشجار الخوخ التي دوى صياح الطفل قايغوسوز بدون شك في أرجائها، ثم طاحونة المياه التي كان يقيل في ظلها، وصلنا إلى قرية شيكشيلي. سنتلكأ بين أطلالها التي تصطف على رابية تسمى «جبل السراي»، غير أننا لا نستطيع أن نحلم الا ببذخ سراي بكوات علاعية، الذي ينتصب هنا منذ ذاك، لأن إغراءاته تبددت، إذ قامت الجرافات باقتلاعه حتى أساساته، في نفس المكان الذي قاموا فيه بزراعة الموز والأشجار المثمرة.

نعم، كان هنا قصر ترتفع جدرانه المزينة بالخزف الموشي بالذهب البراق

الذي يحمل كتابات تشير إلى الانتصارات العديدة، قصر محاط بحدائق نبت فيها الورد البري. كما اليوم، كان المنظر خلاباً. هابطاً على منحدرات جبال أقداغ، يروي النهر، قبل أن يصب ماؤه في البحر المتوسط، أشجار البرتقال ويُحيي الإقليم. قبل أن نتخيل قايغوسوز، قبل أن يختفي ويفسح مكانه لغيبي، والمسمى بعد الأمير علاء الدين، عاش في هذا الاطار، في هذه الطبيعة الخلابة، في هذه الجنة الصعب دخولها على كافة الفانين والتي يدخرها الله للأمراء. لا يكتفي بالتمتع بملذات هذا العالم، أن يحيا في الجنة ويتذوق المتع التي توزعها المحظيات. ومن يعرف؟ لنأخذ مثالاً على «قابوسنامة»(6) الذي كان يتصدر بطبيعة الحال مكتبته، ربما استسلم في الشتاء لجاذبية الغلمان ذوي «البشرة الدافئة» وفي الصيف لجاذبية «النساء ذوات البشرة الرطبة». كان يحيا اليوم بيومه، متمتعاً بملذات الحياة. وفي الحفلات والولائم، سحرته امرأة لها عينا غزال. لزي ياري، مؤلف «قابوسنامة»، الحق في قوله : كان يحلم طوال اليوم بالجميلة ذات القوام الفارع والحاجبين كالهلال، وحينما يأتي المساء، ينتظرها بفارغ الصبر. بشرة المرأة رطبة كما هواء الأسطح العالية، من اللازم الاقتراب منها صيفاً والابتعاد عنها شتاء. محتقراً البحر العميق والمالح، كان الأمير يبرد جسده في حوض القصر، وحينما يهل المساء، تأتي المحبوبة لكي تخفف من ضيقه.

***

هل رأيتم من قبل تمثال خيال ؟ لا أتكلم عن تماثيل آتاتورك الشهيرة، ولا تمثال السلطان محمد الفاتح الذي يقابل قنطرة بوزدغان في اسطنبول، وإنما عن تمثال علاء الدين كيكوباد، فاتح علاعية، في المدينة التي تحمل اسمه، ممثلاً

هيمنة لم تتحقق الا على خيله. إذا سمحت الظروف، لا تترددوا في زيارته. على القمة الصخرية لشبه الجزيرة التي تلتف في دائرة كما الهرة، ينتصب في حديقة آنطاليا العامة، داخل الجدران العتيقة لمدينة علاعية ـ كولونوروس القديمة. تتبدى الحديقة كأنها متطرفة عن وسط المدينة. بعيداً عن الجمع الذي يترع السوق والذي يعج الشواطئ وقت الصيف. مع أحواضها، أشجار نخيلها، أشجار صنوبرها، ورودها ومروجها التي، عياناً، تخضر بصعوبة، تتبدى الحديقة كأنها حزينة ووحيدة. هنا، في وسط الحديقة الجميل، ينتصب الخيال البرونزي.

في بادئ الأمر، اعتقدت أنني أنظر إلى محارب مغولي ذي شوارب طويلة متهدلة ويعتمر خوذة ذات مقدمة، ولكن لما دنوت من القاعدة كي أقرأ الكتابة المنقوشة على لوحة مرمرية، عرفت أنني أقف قبالة السلطان السلجوقي علاء الدين كيكوباد. معطياً الظهر للمدينة التي أستولى عليها من الأمير المسيحي كير وارت بعد حصار بري وكذا بحري دام شهرين، يرنو إلى الجبال. من اللازم القول أنه رجل السهوب. جال السهول الرحبة مع فرسانه، اجتاز مرتفعات طوروس، وحينما اتجه هابطاً نحو آلانيا، لاقى البحر، غير أنه لم يعبره. في الحديقة حيث ينتصب، لا يرى المرء الأسوار العتيدة، ولا البرج الأحمر. فضلاً عن ذلك، لا يرى البناء الحجري ذا الخمس كوى الذي يمثل أول ترسانة بحرية في الاقليم. من جهة أخرى، التماثيل لا ترى. ربما تنهض خلال الليل لكي تنتقل من مكان إلى آخر. من يعرف إذا كان تمثال علاء الدين، كي يثأر من ابنه الذي سممه خلال مأدبة، لا يخب في اتجاه قيصرية، قونية، سراي كيكوباد، المقام على ضفتي بحيرة عند سفح جبال آناماس، قبل أن يعود إلى آلانيا ويحتل

مكانه وسط هذه الحديقة الغريبة ؟ يبدو أنه مستاء من المدينة التي تحمل اسمه وأعطى وجهه نحو القارة، نحو السهوب التي قطعها في كافة الاتجاهات خلال سنوات شبابه. كأنه يقول : «بالاستيلاء على هذه المدينة وابنة حاكمها، أصبحتُ سيد الأراضي والبحرين، ولكن اليوم، لا أحكم هذا البلد القاحل». هل قرأت في أطلال القصر، داخل القلعة، أو على بوابة البرج الأحمر، أن علاء الدين، الجالس على عرشه شاباً، كان «سلطان الأراضي والبحرين»؟ ربما كان سلطان هذين البحرين، أحدهما خَدَّاع والآخر عطوف، اللذين ـ حتى اليوم ـ يحيطان ببلادنا من الشمال ومن الجنوب، الا أنه لم يهجر قصره في قونية واستعمله كمرسى للاستجمام، مأوىً شتوياً، هارباً فيه من شتاء السهوب القارس، قبل أن يسممه ابنه، وهو في الخامسة والأربعين من عمره. كان يأتي إلى هنا ممضياً اقامة رائعة في القصر الذي بناه داخل الأسوار التي تغطي القمة الصخرية.

إذا سألت من قبل : هل رأيتم من قبل تمثال خيال ؟ لم يكن علاء الدين كيكوباد أول خيال برونزي. رأيت، في سان بطرسبرج، القيصر بطرس الأول(7)، الذي يلقبه المؤرخون بالكبير، بينما نطلق نحن عليه المجنون، يحاول أن يكبح جماح حصانه الذي يشب هائجاً. وفي مدريد، رأيت دون كيخوته يمثل فارساً مقداماً على فرسه النحيل، وفي مدينة سمسون رأيت تماثيل خيّالة لآتاتورك، ولكن ربما كانت المرة الأولى التي تقع عيناي على فارس ملحوم على دابته ويصبحان جسداً واحداً. ربما لأن السلاجقة، والأتراك عامة، يعطون أهمية خاصة للخيل. فهمت بصورة أفضل لماذا كان هنود أميركا الجنوبية مذعورين من فكرة أن الخيل والفارس يكونان مخلوقاً واحداً. نقول أن

الأمير علاء الدين، إلياس قايغوسوز عبد الله، لم يكن عاشق نساء ذات أعين غزلانية، ولكنه كان يحب، مثل السلطان السلجوقي الذي حمل اسمه، ركوب الخيل ومطاردة الطرائد.

***

قبل زمن طويل كانت الغابات الكثيفة تغطي هذا الاقليم. على منحدرات طوروس والهضاب العالية وربما أيضاً على السفوح الظليلة التي نبت الزعتر عليها ترتفع أشجار الصنوبر، البتولة، الأرز. السفن الشراعية الضخمة تحمل الأخشاب إلى اللاذقية وماغوس والاسكندرية، حيث تعود محملة بالتوابل. تحت حكم السلاجقة، ازدهرت المدينة وتوسعت الأحياء، وتجهزت الترسانات، وورش البناء البحري وورش سك النقود، بقلعتها التي تحمي قصورها، صهاريجها، بيوتها ذات الطبقات السفلى المبنية بالأحجار فيما طوابقها من الخشب، مساجدها، حماماتها وينابيعها، أصبحت مركزاً مزدهراً. أرثوذكس، يهود، وثنيون، يتبادلون الحديث بالتركية مع المسلمين ويتعايشون في أخوة، بفضل الحماية ومساندة «سلاطين الأراضي والبحرين». بعد انهيار الدولة السلجوقية، سيطرت الدولة القرمانية على آلانيا، ثم جاء دور العثمانيين. كان لبك علاعية، الذي ورث هذه الأراضي التي تحيا في نظام ورغد، ابن وحيد، علاء الدين. لم يكن يشك أن أبنه سوف يتجه ، في يوم من الأيام، إلى القنص مع رفاقه، سوف يركض في أثر أيل ولن يعود أبداً.

كان للأيل قوائم رشيقة وعينان واسعتان. فر وعلاء الدين في أثرها. اجتازا غابات كثيفة، قفزاً على جداول وصخور وعرة تاركين الينابيع للجنيات والجبال للغيلان، اختفيا في الغابات. قاد الأيل ذو العينين الواسعتين المتقدتين

علاء الدين خلفه على خواصر طوروس المنحدرة، حتى المالي. وصلا هنا حيث توجد، اليوم، القرية والتكية، توقفا منهكين ولاهثين. حسب الألفاظ المستخدمة في كتابة سيرته، بعد زمن من وفاة علاء الدين، قام الأمير «بسحب سهم من جعبته، شده وجرح الأيل في قائمته الذي وثب وفر. انقضّ الأمير في أثره.»

أصاب السهم الأيل دون أن يقتله. يقتفي الأثر. تعبا، طارد علاء الدين الحيوان. في آخر الأمر، دخل إلى تكية عبد الله موسى، اخترق الساحة واختفى تحت الشرفات المقوسة. تردد الصيّاد للحظة، واستعد للعدول عن أمره والرجوع إلى ذويه. كان قلبه يدق بقوة. شعر بعزم واندفاع الوريث الثري الذي يمنح للآخرين شيئاً من خيره. مدفوعاً بغريزة الامتلاك التي لاتقاوم والتي اجتاحته، توجه إلى رجال الله كي يطلب المساعدة. لنسمع معاً البقية، كما رواها درويش مجهول، مؤلف سيرة قايغوسوز عبد الله :

أجاب الدراويش : «لم
نر هنا أي أيلاً»
أكد الأمير : «هل يكذب الدراويش ؟
لماذا تنكرون ، رأيت الأيل
بعيني يدخل من هنا»
رددوا : «لا نعرف شيئاً»
كان الأمير مذهولاً.

في هذه اللحظة، وقد سمع أصواتاً عالية، استعلم عبد الله موسى عمّا يجرى. طلب قدوم علاء الدين ورجاه أن يحكي له حكايته. بعد أن استمع

إليه، قال له :

«هل تعرف سهمك ؟»

«بالتأكيد»، أجاب الأمير.

وهكذا سحب الشيخ سهماً من

جعبته ومده اليه :

«خذه إذاً وفي المستقبل لا تطلقه

على الكائنات الحية !»

بدون شك، تعتبر حكاية دخول علاء الدين إلى طائفة عبد الله موسى من أجمل ومن أكثر أساطير الطريقة البكتاشية دلالة. ولكن بعد هذه المرحلة المروية تفصيلياً في السيرة، لا تطلق الأشياء بمفردها. لكي يستعيد ابنه المقيم في التكية بقصد أن يصبح مريداً لعبد الله موسى، فكر البك في القيام بحرب على الدراويش. أرسل كلاغيلي عيسى، أحد رجال تكه بك الشجعان. لن أتمهل في أن أحكي كيف اخترق موسى ودراويشه النيران وهم يرقصون رقصتهم الطقسية، يقتلون تك بك وكلاغيلي عيسى، وكيف أن بك علاعية قدم بنفسه لكي يستودع ابنه لدى عبد الله موسى. سأقتصر على القول أن الأخير، بدخول مريده الجديد إلى التكية، وجد علاجاً لهمومه، ومنحه اسم قايغوسوز (اللا مبالي).

من المعروف أن مغامرات قايغوسوز لا تنتهي مع معجزة عبد الله موسى الذي جاب الغابة المتحولة إلى أيل. وبعد انضمام الأمير إلى نظام الدراويش أخذت اتجاها آخر. أصبح قايغوسوز رجلاً آخر. منذ هذه اللحظة أصبح عبد الله رجلاً من رجال الله في خدمة عبد الله موسى، تاركاً الملذات والأهواء.

ولكن، على غرار يونس امره، هل ترك نهائياً هذا «العالم الخادع»، «سبع مرات خالياً وسبع مرات مكدساً»، لكي يهب نفسه لحياة الاعتزال ؟ للبقاء في المالي؟ أشك بقوة. في «مناقبنامة»، عرفنا أن قايغوسوز ـ على غرار كثير من الدراويش، مثل يونس امره الذي جاب المسافات ناشراً تعاليم طابطوك ـ لن يبقى في التكية. مع اذن معلمه وبرغبة البقاء في كل لحظة قريباً من عبد الله موسى وتلقي روحه في جسده، حتى قبل أن يجف حبر الاذن، انطلق، اجتاز البحر المتوسط ـ ربما، مثل بوركلوج مصطفى، مريد بدر الدين، هل اجتاز البحر منتعلاً بابوجاً من الصوف ـ ، وصل إلى كولمان (إلى مصر في قول آخر) وأسس فيها طريقته.

إذاً، أصبح قايغوسوز درويشاً جوالاً. منطلقا في الصباح الباكر صحبة الأربعين درويشاً الذين انتقاهم عبد الله موسى لكي يصحبونه، يهبط إلى سهل المالي ويتوقف عند حافة المياه. كانت الصلوات المرتلة جماعة ترن في أذنيه ومن فوره طفق يتأسف عليه. لعشرين سنة عاشا وضحكا وبكيا معاً. تقريباً ، كانا مثل وجهي رقعة من جلد غزال. تقاسما نفس المصير، وبحسب تعبير شاعر معاصر، «عاشا حياة واحدة». مولانا الذي، مثله، عرف نفس الوضع، عبر عنه شعراً: «كانا محاطين بالأشواك، ولكن كوردتين»، «كانا غاطسين في الليل، ولكن كنهارين». تخبطا في هذا العالم الأرضي، ربما، ولكن كقلب عاشق، وكأنه يستحم في نور الحب الخالد. لم يتحول عبد الله موسى إلى أيل كي يجتاز الغابة، ولم يلاحقه غيبي بدون سبب. «من يذهب إلى القنص، يضحى قنيصة بدوره». وهكذا أسر درويش من بلاد الروم (الأناضول) الابن الوحيد لبك علاعية القوي، مبيناً هذه الكلمات: «اللحم لك، والعظام لي». لم يعفه من

الخيرات الدنيوية، وانما رباه على تراتبية النظام».

كان الطقس خانقاً. كانت حرارة آنطاليا الرطبة تنتشر على موجات متتابعة، وحتى الدراويش المعتادين على حياة التقشف وقسوة المناخ، كانوا منهكين تماماً. أعرفه بفضل مناقبنامة قايغوسوز بابا، سيرة قايغوسوز المكتوبة في بداية القرن السادس عشر. غير أن المؤلف المجهول لهذا العمل المفيد، الذي يمزج بين الواقعي والخارق، بخيل في التفاصيل. يقتضب. «هناك الكثير لقوله وسيكون طويلاً حكي كل ما وقع قبل وصوله إلى مصر. هيا بنا إلى الفعل»، كما كتب. أيضاً، يستلزم علي أن أتخيل «الجزء الطويل» للرواية، أن أبتكر الأماكن التي عاش قايغوسوز فيها والتي تثير اهتمامي حقاً وتملأ، بفضل أبحاثي، الفراغ الذي تركه هذا المؤلف العجول.

نعم، كان الطقس خانقاً، والطريق طويلة، والهدف متعذر بلوغه. قرر قايغوسوز أن يضع رفاقه في التجربة. كان يريد رجالاً موثوقين يقومون بهذه الرحلة الطويلة والشاقة. هنا حيث المياه تنبجس من أشجار الحور. والأشجار نمت بصورة جميلة وطيبة، غير أن أية نفثة هواء لا تهزها. لا ورقة تتحرك. كانت الشمس متأججة للغاية إذا ما طرحت على الرمال، من الممكن أن تشوي أوزة القاضي الذي، في قصيدة قايغوسوز الشهيرة، سُلقت أربعين يوماً دون أن تنضج. أشجار الحور لا تهتز، غير أنها تنتصب واقفة نحو السماء بفضل الشابة التي ترتدي زي الحفل. تنتمي إلى نوع يطلق عليه «زرقردان». ظلها رطب، المياه رائقة والعرق يتلألأ على وجوه الدراويش المتعبة. «يا لجمال أشجار الصنار تلك، تنمو في مكان ساحر»، قال قايغوسوز، كي يتقاسم حميته مع الدراويش الآخرين. كنا في وضح النهار. وحتى أن التركمان، بلغتهم، يخلطون بين الحور

والصنار، ونحن لا نجازف بالوقوع في الخطأ. أجاب الدراويش معاً: «هذه الأشجار ليست صناراً، إنها أشجار حور!». وفي الواقع، هذه الأشجار الهيفاء ليست لها علاقة كبيرة مع أشجار الصنار ذات الجذع الضخم والجاف. ومع أن أشجار الصنار لا ترى أمام الأعين بين الدراويش أنه ينقصها الخشوع. جلسة أصلية وتكفي أية تفسيرات. قرر قايغوسوز العودة إلى تكية عبد الله موسى بمعية الدراويش دون أن ينتظر أن يجف العرق على جباههم. حالما بلغ التكية، توجه إلى رؤية الشيخ ورجاه أن يزوده برفاق آخرين. فهم عبد الله موسى الوضع على الوجه الأكمل. وعندما رجع قايغوسوز إلى حافة المياه، قال لرفاقه الجدد: «يا لأشجار الصنار الجميلة!»، لم يعترض أحد. حتى أن أحدهم، حسب السيرة، تسلق شجرة حور، هزها وأسقط منها «تفاحاً قرمزياً». المياه، وهي تجرف التفاح عكس التيار، تحملها إلى عبد الله موسى، الذي تلقى لذلك أخبار مريده الجديدة.

لن أقول لكم كيف أن مجرى المياه الذي يفضي إلى البحر المتوسط غيَّر اتجاهه وصعد إلى جبال طوروس حتى وصل إلى المالي (بلد التفاح)، كاسم على مسمى، ووضع التفاح على عتبة التكية. ألا يُحكى أن يونس امره أكل العنب التي قطفها من على شجرة خوخ؟ من الممكن أن تثير معجزات شيوخ الأناضول، وأؤكد عليها، الخلاف بيننا، غير أنها توزع علينا نفس الاستعارات الشعرية. بدون أدنى شك ، من اللازم البحث عن جذور هذه المتشابهات في تقاليد الشطحية (Şathiye) الخاصة بالشعر الصوفي. ولكن قبل فهم قصائد قايغوسوز، أريد أن أذكر مغامراته في مصر، المروية بالتفصيل في «مناقبنامة». تستحق حكاية «الملعقة ذات اليد الطويلة» ، أن تُذكر.

وصل قايغوسوز بمعية الأربعين درويشاً إلى مصر. استقبلهم حاكم هذا البلد، الأعور والذي يخفي عاهته بعصابة قطنية، في قصره، توافدوا «كطيران طيور الغر» واحتلوا مكانهم حول طاولة طويلة. في أوان ذهبية، يرون أرزاً أبيض، وردياً، زعفراناً، ذا روائح مختلفة. عالم أرعن، بدلاً من أن يمد ملعقته إلى فمه، مدها إلى أذنه. ولكي يبين قايغوسوز له كيف يؤكل الأرز بملعقة ذات يد طويلة، نطق بهذه الأبيات:

هاه، بيلاف [8] هرمي له شكل الوردة
وقوام السرو
دسم للغاية، ممتلئ بالعنب الجاف،
معطر كعريس شاب!

ثم غرز ملعقته في الأرز، ومدها إلى فم الدرويش الجالس قبالته، وبدوره مد هذا الدرويش ملعقته إلى فم قايغوسوز. هكذا، وقد أثبتوا أنهم أكثر مهارة من العالم المصري الكبير، نجوا من الاعتقال.

هناك موضوعة مثيرة، ألا وهي موضوعة المدينة التي تنبجس أمامهم على طريق مكة. مثل المدن غير المرئية لدى كالفينو[9] ، هذه المدينة الخيالية تماثل إلى حد ما كافة المدن. تتبدى من بعيد مع هبوط الليل. في الصباح، حينما يستيقظون، يعرفون أن المدينة اختفت، غير أنها تعاود الظهور مع هبوط الليل، مانحة المأوى لقايغوسوز ودراويشه قبل أن تتبدد من جديد مع مطلع النهار. «وهكذا، كما كتب في السيرة، بلغوا مكة في أربعين يوماً».

بعد أن قابل عبد الله موسى، هل تخلى قايغوسوز فعلاً عن متع هذه الدنيا؟ هل كان، كما كُتب في «كتاب المقالات»، درويشاً حالماً غارقاً في أحلامه التي، في صحوه، تقبع وسط الصحراء؟ ربما. غير أنه لا يبرز في شعره. وشعره

يعلمنا أنه كان يحب النساء ويمضي الكثير من الوقت معهن، وأنه تزوج أردين «ذات البشرة البيضاء»، ولكن «ذات العيوب الكثيرة»، التي يضربها ويطردها من بيته. بالمناسبة، لم يمنع نفسه من التشهير بها والسخرية منها. على سبيل المثال، يتشكى في هذه الأبيات :

انظروا قليلاً إلى هذه المرأة الشرسة
لا تستطيع أن تجر قدميها
لا تعرف أن تفعل شيئاً
تمكث هنا، عاطلة

في عنقها عقيق
لا تعرف الطهي
سروالها مفتق
تبقى هنا بلا حراك

لا تخلع نعليها أبداً
ترتدي أساور فضية
دوماً لها نفس الثوب
تفغر فاها لطيور الزاغ

تضخم وتسمن
تقضي حاجتها أمام الباب
قملها أنشأ يطير
تظل دوماً واهنة القوى

لا يقترب قايغوسوز أبداً منها

بضاعة كاسدة في السوق

لا تلاطف أبداً

يقال أنها بقرة ضخمة.

هذه القصيدة الشهيرة التي لا أدون منها سوى جزءاً يسيراً لئلا أغضب النزعات النسوية، تعبر، حسبما النمط «الذكوري»، بكلمات قاسية وساخرة، عن رأي الشاعر في زوجته. اللغة، الجديرة بسوقي لا بلغة درويش أو أمير، تثير الحيرة. هل مؤلف هذه الأبيات هو نفسه من نظم رسائل تعليمية وقصائد تعبر، في التقليد الديني السليم، عن المظاهر الثاقبة في الصوفية؟ ألا يوجد هناك، كما يؤكد بعض المتخصصين، قايغوسوز عبد الله آخر عاش في رومليا وكان يسخر من نفسه:

أقولها بصراحة

كل كلمة من كلماتي مثل شمامة

خضراء

أشرد بلا هدف

كلقلق في الصحراء

إذا كان هناك قايغوسوزين، فهذا يجابه الله ويزدري المتزمتين. من المثير للاهتمام، على سبيل المثال، معرفة إذا كان مؤلف هذه الأبيات مريد عبد الله موسى أو قايغوسوز الآخر:

أرى أنك العالي والحكيم،

يا الهي

أقرأ حرفياً كلامك كلي العلم،
يا الهي
ومع ذلك إذا كان المرء يتعرف على
الإنسان
لا أب ولا أم ، يا الهي ، أنت
غير محدد الجنس

إذا رجعنا إلى مناقبنامة، إلى السيرة، إلى مغامرات قايغوسوز في مصر وفي الحجاز، إلى المعجزات التي أتمها عند عودته، إلى القصائد التي غناها في كل مرحلة من مراحل رحلته، يتبدى لنا، بعاطفة وحمية وحتى اللذة نفسها، عن أنه استرد العالم بعد أربعين عاماً من اعتكافه في تكية عبد الله موسى. نكتشف متعياً [10] يعشق الطبيعة، المتع الحسية، الطعام الطيب والشراب. ومع ذلك هذا المتعي نفسه كتب غفرنامة، الذي عبر، على قبر النبي، عن الحب والود العميق اللذين يكنهما له، مادحاً النبي محمد والإسلام، وكتاب المقالات، الذي ذكر فيه، تحت شكل الاستعارات، عن الأحلام التي سكنت حياته، حياة الدرويش. هنا، تكمن معجزة من الصعب تفسيرها إذ أننا، على خلاف يونس امره الذي نعرف الكثير عنه جيداً، نجهل في أية لحظة كُتبت مختلف هذه القصائد وأن كل القصائد المنسوبة اليه قصائده حقاً. وفق مناقبنامة ونتاجه الشعري، يتبدى أنه لم يعش فقط في مصر، في الحجاز، في العراق وفي سوريا، وإنما أيضاً في رومليا وفي فيليبوبوليس [11] والمنستير [12] وأردين [13].

للأسف، تستدعي مناقبنامة، والتي نستقي منها هذه المعلومات، حياة قايغوسوز الأسطورية وتزودنا بشيء يسير من قصائده. ومع ذلك من الضروري

القول أن هذا الممثل الكبير لأدب التكايا وَسَمَ عصره ليس فقط شعراً وإنما أيضاً نثراً وأنه منح، بعد يونس امره، الصوفية توجهها الجديد. أيضاً يستلزم أن نقف للحظة كي نبحث شعره. بعد ندوة حضرتها، حاولت أن أختبر أن قايغوسوز لم يكن شاعراً «سوريالياً»، كما أراده التقليد الأدبي، وانما الممثل اللامع للشطحية، التي تؤسس أحد العناصر التقليدية في الأدب الصوفي الآناضولي. أسائل نفسي حتى اليوم عن الطريقة التي عاشها في آلانيا، خلال الفترة التي كان يصطاد فيها بشغف، قبل أن يصبح درويشاً وشاعراً. وبعد، هل يعتبر واحداً من هؤلاء الدراويش الذين تعاطوا المخدر؟ كيف كتب هذه القصائد الخاصة للغاية، الأكثر فتوراً والأكثر جمالاً، الواحدة بعد الأخرى، التي تؤرجح حدود الواقع وتفتح أبواب الخارق؟ هل تغير حقاً بعد دخوله إلى التكية، كما تؤكد مناقبنامه، أم احتفظ بنفس النظرة إزاء العالم، متابعاً «التمتع بالحياة»، كما قال الشاعر نديم(14)؟ كيف استطاع نظم هذه القصائد التي تستدعي الخير الدنيوي، الرغبات الشرهة، أفراح الحياة، والتي تعتبر من قبيل مدح الأشياء والأحاسيس التي تنمو اللذة منها؟ بحثاً عن إجابة عن هذه الأسئلة، سوف أسعى إلى اختراق عالم قايغوسوز الشعري، الذي يسلب لبي مثل البحر ذي لون النبيذ يجذبنا إلى الهاوية حينما نتطلع إليه من أعالي قلعة ألانيا.

***

نعرف أن الشطحية تحتل مكانة هامة في شعر قايغوسوز عبد الله. في هذه القصائد التي تنتمي إلى هذا النوع، بسيادة لا نظير لها في أدبنا، يتأرجح في هذه النقطة العقل والنظام الطبيعي بحيث أن المتخصصين صنفوه ضمن الشعراء

السورياليين. وهو ذا، كمثال وليس حصراً، ما كتبه عبد الباقي غولبنارلي في هذا الصدد :

في العديد من قصائده نندهش من الألم الذي سببته الرغبات المستحيلة إرضائها، بروز الانطباعات شبه الواعية، الاجتذاب إلى حياة مكثفة وإلى السعادة، أحياناً تأخذ هذه النوستالجيا الشكل الساتيري بالمعنى المفكك وتمنح مكاناً للقصيدة السوريالية الحقيقية (...) قايغوسوز عبد الله، بالتأكيد، شاعر أصيل.

اعتبر زكي ايوبوغلو أن قايغوسوز عبد الله حرر الشعر من ضغط المعنى. فيما يلي شئ مما كتبه :

هذه القصائد النوستالجية تخلي مبادئ العقل، تفر إلى ضبط الوعي وتجعلنا نخترق فضاء الحرية الكاملة. في هذا الفضاء، مستعيراً اللغة المعاصرة، قايغوسوز عبد الله «شاعر سوريالي». في هذه القصائد، تفر المشاعر والانطباعات إلى ضبط الوعي وتنسال إلى الخارج كما الماء يمضي عبر ثقوب المصفاة، ولذا تتبدى حميمية الشاعر السرية، التي تكشف أو لا تكشف عن شبه وعيه، على نحوٍ جَلِيّ.

ولكن قبل الذهاب إلى البعيد، لنتوقف قليلاً عند مصطلح «الشطحية». تتأتى هذه الكلمة من العربية «شطح»، التي تعني السخرية، القدح، التوبيخ، الا أنه أخذ معنى «استرداد الهوية» واستعمل للاشارة إلى القصائد والأدب الصوفي اللذين ينتميان إلى هذه المطالبة. من الممكن أن نلاحظ أنها مميزة على وجه التحديد بالتمرد، السخرية، الانكار، الدعابة، اللمحة الخداعة والهذيان الشفهي. غير أن الكلام المنطوق من قبل شخص ما في لحظة غواية أو هذيان حلمي لا ينفتح غَضْباً، كما أكد عطيلة أزكيريملي في «انسيكلوبيديا الأدب التركي»، على «صور سوريالية». يتوافق الأدب العلوي ـ البكتاشي مع كثير من النتاجات المنتمية إلى نفس النوع مثل قصيدة الشاعر يونس امره التي تبدأ بهذه

الأبيات: «قفزتُ على غصن شجرة توت وأكلتُ من عنبها/ انزعج البستاني وقال لي: لماذا تأكل حبات جوزي؟». ولكن بالتأكيد ندين بقصائد الشطحية المهمة إلى قايغوسوز عبد الله. أبانَ بعضُ مؤرخي الأدب أن الدروايش الذين يدخنون الأفيون والحشيش، كما لدى قايغوسوز عبد الله، كتبوا هذا النوع من القصائد تحت تأثير المخدر وأن الشعراء الشرقيين الصوفيين عبروا عن العلاقة بين الابداع الشعري ووظيفة المخدر قبل أن يدرسها بودلير في «جنات صناعية». نعرف أن دروايش الآناضول سبقوا شعراء الهيبيز. كانوا يعلقون في أعناقهم قشرة جوز هندية ملآنة بالمخدرات، التي أطلقوا عليها «قرعة المخدرات»، لكي يثيروا انتباه الناس و«يقللوا من شأنهم»، حسب تعبير غولبينارلي. لا يجب أن يكون كلام الدروايش الضالين، الذين ينتقلون من قرية إلى أخرى يذكرون اسم الله، من قبيل الهذيان الذي تم ذكره تحت تأثير المخدرات مختلطاً مع قصائد قايغوسوز التي تحمل في داخلها معنى الصوفية العميق. كمال طاهر، في روايته الشهيرة «الدولة الأم»، يميز صراحة، هو أيضاً، يونس امره «شاعر الحب الضال» عن الدروايش المخدورين. حينما زار يونس امره الشيخ ادي بالي[15]، قال عنهم أنهم «منتوفو الريش» وأتهمهم بأنهم «انكبوا على السلب والنهب»، وأنهم ثملون ومخدورون. حتى أن حدث كون البكتاشيين منحوا المخدرات اسم «قايغوسوز» (اللا مبالي) لم يغير في الأمر شيئاً. في الواقع، تعمل وظيفة المخدر على بلبلة نظام الحواس ومن الممكن أن تسبب الهلاوس، حتى الكشف[16]. ولكن في أي أدب، غربي أو شرقي، لم نر أن المخدر حقق عبقرية لإنسان غير موهوب. تتحدد تجارب بودلير ورامبو في بعض المساعي التي تهدف إلى تبيين عبقريتهما الإبداعية

وتنمي قوة خيالها. في عصرنا الحالي، حافظ شعراء «البيت جينريشن» (Beat Generation)، مثل جينسبرج أو نغريتي، على نفس العلاقة مع المخدرات. وهكذا لماذا، وقد شممنا رائحة المخدر في بعض شطحات قايغوسوز، فكرت أنه من غير الواجب اختزال العالم الفوق طبيعي لهذه القصائد الفريدة التي أطلق رامبو عليها «اضطراب المعنى»؟ في بعض القصائد، يذكر قايغوسوز بلا مواربة رغبة المخدرات :

آه، إذا كنا نمتلك الأفيون
ومنظراً مخصوضراً للتأمل
إذا كان الهواء عليلاً والطقس معتدلاً.

في أبيات مثل «حينما يتنفس العشق، تطلب الروح المخدرات»، يعبر عن احتياجه للمخدر، وعلاوة على ذلك لا يتردد عن مدحه :

تعال، أيها التعس، ثق في قايغوسوز،
تناول الحشيش،
حشيشة الحب هذه ليست على ذوق الجميع.

حينما ندرس شطحاته، لا يمكن أن نتجاهل أن الشاعر يتناول المخدر، غير أنه من التعسف، بالطبع، نسب «صوره السوريالية» إلى المخدرات. من السهل أن نثبت أن قايغوسوز ليس شاعراً سوريالياً وأن قصائده التي نسبت اليه ترجع إلى «تكيرلمية» (Tekerleme) الأدب الشعبي التقليدي.

استخدمت الكلمة «سوريالية» للمرة الأولى علانية من قبل آبولينير، في عام 1917، كعنوان فرعي لمسرحيته: «نهدا تريزيانس». غير أنه فقط في عام 1922، مع نهاية الدادائية، بدأت السوريالية تختبر تأثيرها وتحقق نتاجات

مبتكرة، مقلقلة القيم التقليدية ومقتربة ـ من خلال الحساسية وخارج كل مسعى عقلاني ـ من العالم شبه الواعي ومن الجمال المولود صدفة. هذه الحركة تجتهد في تنمية الصور التي تنبجس كما الومضات من الاتصال القائم بين الموضوعات والأحداث. بدءاً من مسلمة لوترايامون: «يجب أن يبدع الشعر من كل شيء»، وتحت قيادة آندريه بروتون على وجه التحديد، أراد أن يكون الشعر شأن كل شيء وطمح إلى أن يكتسب بعداً ثورياً ويصبح نمط حياة على الوجه الأكمل. أثرت هذه الحركة ليس على الشعراء فقط، وإنما على جيل كامل من المثقفين. انقسم السورياليون، الذين كانوا حتى الثلاثينيات مترابطين في جماعة واحدة، إلى أكثر من جماعة بواسطة آراجون وغيره.

إذا اختبرنا شطحات قايغوسوز على ضوء هذه المعطيات، نلاحظ أنها لا ترتبط بأدنى علاقة مع «الكتابة الآلية»، التي تلتمس التعبير غير المنضبط لشبه الوعي، ولا مع المفهوم الجمالي لبروتون الذي يتأسس حول «الصورة السوريالية»، المحققة من الرابطة العرضية في قصيدة لوترايامون بين «آلة الكتابة والمظلة». في أول «بيان سوريالي»، يستعيد بروتون هذا التعريف للشاعر بيار ريفردي:

الصورة إبداع الروح الخالص. لا يمكن أن تولد من المقارنة وانما من مقاربة واقعتين بعيدتين إلى حد ما.

كلما كانت العلاقات بين واقعتين بعيدة وصائبة، كانت الصورة قوية، وكلما كانت الصورة قوية ـ كلما امتلكت مقدرة عاطفية وواقعة شعرية...

لا أعتقد أن في شطحة قايغوسوز عبد الله الشهيرة التي تبدأ بالبيت «سلاحف، سلاحف تتزود بالأجنحة كي تطير»، تلك العلاقات التي تؤرجح

النظام الطبيعي، والصفات الانسانية الممنوحة للحيوانات تمتلك قرابة مع «الصورة السوريالية» أو تقرب بين واقعتين، كل واقعة منهما بعيدة عن الأخرى.

لنبدأ بقراءة هذه القصيدة:

سلاحف، سلاحف تتزود بالأجنحة كي تطير
العظاية ترغب في زيارة القرم
الفراشة تتناول قوسها وتتجه إلى
القنص
الخنازير والدببة تتشتت مرتعبة

فم جسر ارغن البائس
جاف
منارة أدرنة تنحني كي
تشرب
لففت الجذع بالحرير لأنني أمقت
السمنة
يمضي الكيس على الحشائش ويطلق ساقيه
للرياح

ثلاثة آلاف سمكة تشتي في
جبال الله
ولكن بما أن الماء لا يوجد فإنها تستعد
للرحيل

اللقلق ولد جحشاً وأنشأ يعزف على
الناي
تتسلق السمكة شجرة الحور كي
تقطع غصن الصفصافة

الفراشة تبذر القمح في سهل
مانيسا
الناموسة اليومية تشارك في
الحصاد
ذبابة نزعت فخذ
جمل
مرتجفة أعضاؤها فرت إلى
الوادي

النملة العرجاء تحمل أربعمائة كيلو
من الملح
سوف تبيع في المدينة أحصنة
أو سكراً
زوَّج الخنزير ابنته الوحيدة لدب
القرد تناول مقصاً كي يقص
قفطاناً

الجمل اتجه إلى الحمام ودلكه

عجل

الجاموس رغب في أن يكون صاحب نزل

كلام قايغوسوز حبات جوز هند

حقيقية

قلت كثيراً من الأكاذيب تفضي بك إلى

جهنم

فسر زكي ايوبوغلو هذه الأبيات :

«المثير للاهتمام في هذه القصيدة الطويلة، أنه يجاور المتناقضات ويمزج بين المتعارضات. الذبابة تنزع فخذ الجمل، السمكة تتسلق شجرة الحور، الدب تزوج ابنة الخنزير، السلاحف تمتلك أجنحة وتنشأ تطير، الكيس يتنزه في البراري، اللقلق ولد جحشاً، الفراشة وترت قوسها وجذبت سهماً، الناموسة تشارك في حصاد القمح ... إنه جمع لمخلوقات متنافرة».

بيد أن العالم الاستثنائي الذي تصفه هذه القصيدة لا ينشأ من تصور سوريالي. نجد هذا النوع من المتناقضات ومن المشاهد العجيبة في لوحات جيروم بوش[17]، حكايات القرون الوسطى وهذه «التكيرلمية» من الأدب الشعبي التي يطلق عليها القصيدة الهجائية. كان برتو نايلي بوراتاو أول من جذب الانتباه إلى هذا النسب. في عمله «التكيرلمية»، المكتوب بالفرنسية، برهن مستنداً إلى عدد من الأمثلة على أن الرسائل الهجائية لبرق بابا، الذي عاش قبل قرن من قايغوسوز، تكشف ليس عن السوريالية وإنما عن اللا عقلانية. وفي مقدمته المعنونة «عن الزمن القديم»، بين أن هذه النماذج من الممكن أن تكون ذات علاقة مع الشامانية، وعبر عن الأفكار التالية :

في بعض مقاطع «الرسالة» المنسوبة إلى برق بابا، الصورة البارزة بين درويش القرن الثالث، يستدعي أسلوب التعبير بعض موتيفات «التكيرلمية». (...) في هذه التعبيرات التي تجعلنا نفكر في الهذيان الحلمي، والجاد والفكاهة يتداخلان إلى أن يمتزجا. في الآناضول، خلال الفترة التي شهدت ازدهار النثر والشعر، كانت هاتان النبتتان مغروستين في التربة العضوية التي غذت الحكايات و«التكيرلمية». اجتهد الشعراء أمثال برق بابا، يونس امره وقايغوسوز عبد الله في حل المشاكل الميتافيزيقية مستعينين بأسلوب التكليرميه الذي نقلوه عن جداتهم أو حاضناتهم.

***

وضعتني الارادة الالهية كجمرة على دولاب الثروة ودورتني كساقية. توافقني تارة، وتبلبلني تارة أخرى. تجعلني إنساناً تارة وحيواناً تارة أخرى. تجعلني تلميذاً يتعلم تارة، وأستاذاً يعلم تارة أخرى. كنت ابن أبي تارة، وكان هو ابني تارة أخرى. كنت طفلاً في حضن أمي تارة، وكانت أمي ابنتي تارة أخرى. ولكن لأكف عن إزعاجكم: أكثر من ألف مرة، أمضي من جسد أبي إلى رحم أمي، جئت إلى العالم.

في هذه الأسطر التي استعرتها من برق بابا وجدت بعض موتيفات «تكيرلمية». وحينما قال قايغوسوز، هو أيضاً: «كنت ابن أبي تارة، وكان هو ابني تارة أخرى»، ألا يستعيد، بطريقة ما، تعبير: «حينما أهز بطن أبي»؟ تكشف التعبيرات «الخرفة في سهل دوبروديا [18]...»، «إذا كان العالم ملآناً بحلوى المنتصرين...»، «إذا كتب جملة من قطعة لحم سمينة لخروف ينضج...» عن النزعة المبتذلة، عن الهذيان المولود من رغبة المتع المادية التي تلوذ بالأحلام. تنتمي إلى نفس النوع الذي توجده استحضارات الشراهة وجلسات السكر في «التكليرمية». أتمنى، عبر هذه الأقوال، أن أكون بينت هذا الموضوع إلى حد ما. كان هدفي يتمثل في جذب الانتباه إلى المتماثلات القائمة بين القصائد

الصوفية، «التكيرلمية» وحكايات الأكاذيب التي نشرها بوراتاو قبل أربعين عاماً. ومع ذلك يتبدى أن الباحثين الذي يقومون بدراسة قصائد قايغوسوز يجهلون هذه الأطروحة. يمنعنا عرض شطحات قايغوسوز على أنها «عينات» سوريالية، بمعنى أو بآخر، من تقييم رابطتها مع الشعر الشعبي التقليدي. في قصائده المنتمية إلى أسلوب الشطح، لم يكن قايغوسوز سوريالياً، بل نستطيع القول أنه سيد «التكيرلمية» التي فتحت لنا أبواب الفوق طبيعي.

***

أين نحن؟ نتكلم عن صورة قايغوسوز المعلقة على حائط تكية عبد الله موسى والتي انحفرت في ذاكرتي. بالعودة من المالي، لم أكف عن التفكير فيها. تساءلت عمن يشبه الشاعر، من أي نوع كان الرجل، كنت في حاجة إلى معرفة أقل أثر عنه، قامته وهيئته. هل كان من لحم وروح خالصة؟ هل كان رجل مثلكم ومثلي؟ كنت في حاجة إلى معرفة ما هي التغيرات التي من الممكن أن يسببها العوز، الزهد، التفكير في الله في كل يوم، في كل ساعة، في كل ثانية، من الصحو إلى النوم، في جسم رجل يذكر اسم الله، صفاته وجلاله، يعمق معرفة ذاته، يملأ ذاته بالوجود الظاهر لله، أن يفقد ذاته في ذاته ـ أو ربما يفقد ذاتاً في ذاته؟ هل عكس هذا النور المقدس الذي أسموه النور الالهي أشعته على وجه الدرويش، الشيخ؟ للأسف، لن نعرف أبداً. بالتأكيد، لم نزل نقابل حتى اليوم شيوخاً، بيد أنهم لا يصنعون المعجزات. يجتهدون في تضليل العقول الساذجة، رسم التعاويذ، قراءة الآيات، نطق الصيغ الغامضة والنفخ في المزامير. نعم، هذا النوع من الرجال الذين نراهم اليوم، تجار التزمت الذين يطلق عليهم «جماعة الحجاج والخوجات». ولكننا فقدنا مذاق التكايا التي لعبت دوراً جوهرياً في

عصر أسلمة الآناضول ورومليا وفي تأسيس الدولة العثمانية. يتبدى أننا نحينا جانباً تاريخ هؤلاء الناس القادمين من خراسان في موجات متلاحقة وبكل مغامراتهم إلى الآناضول على صورة حمامات، التائهين في الغابات على صورة أيائل، يحركون الجبال ويفجرون ينابيع المياه من الأرض.

من هم هؤلاء الرجال حقاً؟ من يشبهون؟ هل كان أحمد يسوي تركمانياً ذا شعر أسود وعينين مغوليتين؟ والحاج بكتاش، طابطوك امري ومريدينهما، يونس، موسى، قايغوسوز؟ نعم، قايغوسوز على وجه الخصوص الذي يحيرني ويجعلني أفكر فيه كثيراً. وبما أنه غير موجود هنا، اقتفيت أثره كي أرى أن ظله لم يزل باقياً في هذا الاقليم. مثلما لاحق الايل ووجد عبد الله موسى، اقتفيت أثره متابعاً روحه الغائبة. مغادراً باريس، وصلت إلى هنا، على ضفاف آلانيا، التي تعد من أجمل ضفاف الآناضول. كان الوقت ربيعاً. كان البحر أزرق فيروزياً. والشمس، الغاطسة في لمعانها، تغني أغنيتها. وبالمثل إذا لم تحصر رأسي «في عمامة من نار»، تلمع في سماء زرقاء بلا سحب، مبينة للناس أنها حارس كافة الحضارات التي ازدهرت في هذا الاقليم والتي لا تملك نية الرحيل عنه. بالنسبة لروح قايغوسوز الغائبة، أنه لا يحيا الا في قصائده وفي مناقبنامة. ولهذا أريد أن أتوقف برهة عند هذه النصوص الأسطورية التي تكون المصادر الأولى لأدبنا الصوفي والتي استعنت بها بغزارة في كتابة هذه الأسطر.

***

اقترح أحمد ياشار أوجاك، في «مناقبنامة» مقاربة علمية للسير، التي يراها نمطاً سردياً فريداً. كتب :

على وجه العموم يمنح اسم «مناقب» أو «مناقبنامة» للنتاجات التي تحتوي على أساطير حول سيد ينتمي إلى أي طائفة من طوائف الدراويش. يتفانى مؤلفها، كموضوع أساسي، في أن يثقف مريدي السيد ويضمن تماسك الطائفة. غير أنه يهدف تحديداً إلى الدعاية عن السيد والطائفة. ومع ذلك لا يجب أن ننسى أن عاملاً آخر ظهر في الكتابة يتعلق بالعمل على قبول السيد وطائفته في وسط معارض، وكذا يمثل وجهة النظر الرسمية للعقيدة.

وفيما يلي ما كتبه عن مؤلف مناقبنامة :

مؤلف مناقبنامة، باستدعاء مخيلته، يجمع ويصنف الأساطير التي تصدر عن الشعوب. هذا الشخص، الذي يدون كتابة السير، من الممكن أن يكون كاتباً موهوباً، بحّاثة منحدراً من جماعة تقوية أو غرا. حتى أننا رأينا شخصاً غريباً في الطائفة يمسك قلماً.

نعرف أن نظام الدراويش بدأ، منذ العصر السلجوقي، في الانتشار في بلادنا، ثم خلال القرن الرابع عشر، الخامس عشر والسادس عشر، حُررت الكثير من السير، وحُفظت في التكايا وحتى في مكتبات السرايات، حتى وصلتنا. ولكن، للاستياء الذي قابلها به المؤرخون الجادون بدعوى أنها قماشة أسطورية، تم الاستعانة بها قليلاً في نتاج المؤرخين. ومع ذلك، وقد دبرت مقاربة نقدية ويقظة، بنت بدون أدنى شك منجم معلومات ليس فقط عن أدبنا الصوفي، وانما أيضاً عن تاريخ الآناضول. لتسمحوا لي، بدون أن تمكثوا على حدود أوجاك الثابتة، والذي يعد أحد أبرز المتخصصين في هذا الموضوع، أن أدوّن على الأقل عناوين بعض البيوغرافيات البكتاشية :

ولايتنامة حجم سلطان، مناقب الحاج الولي بكتاش، ولايتنامة عبد الله موسى، ولايتنامة سيد علي سلطان، ولايتنامة سلطان سود جاد الدين، ولايتنامة عثمان بابا.

يليق أن أضيف اليها مناقبنامة الشيخ بدر الدين[19] التي كتبها في نهاية القرن الخامس عشر حافظ خليل بن اسماعيل، حفيد الشيخ بدر الدين ، الذي روى بالتفصيل سيرة حياة جده، والسلتيكنامة، التي كتبها أبو الخير بأمر من جم سلطان[20]، من خلال الوثائق التي تم تجميعها في روملیا، وبالطبع مناقب قايغوسوز بابا، التي كتبت عصر السلطان سليم الأول وتسرد مغامرات قايغوسوز. قرأت هذا النتاج ليس كمخطوطة، وانما في الطبعة التي حققها عبد الرحمن غوزيل، كاتب من المالي، وحاولت، مستدعياً ذاكرتي، أن أعيد بناء الحياة الواقعية والحياة الأسطورية لقايغوسوز عبد الله. وأرجع إلى هذه النقطة لأنني لا أستطيع أن أقدم قايغوسوز بصورة أخرى سوى ارتباطه بآلانيا.

***

اذا غضضنا البصر عن الشاطئ الرملي الذي يحيط، من الناحيتين، بشبه الجزيرة، تمنحنا هذه المدينة المنتصبة على رأس جيلوردة، بين السحب الصغيرة المتحركة التي، وقت الغروب، تبادل لونها الأبيض باللون الوردي لزهور أشجار يوديه، دعوة لرحلة خلال المد. ربما لأنها، على مدى تاريخنا، وكر القراصنة تارة، وميناء يستقبل السفن التجارية تارة أخرى، أو ربما لأنني أتخيل أن في الأفق، هناك حيث ينتهي البحر الأزرق، يبدأ بحر آخر، محيط، أكبر وأعمق. تدفع ريح مجنونة السحب القادمة من القارة، والمنحدرات وأودية الجبال المغطاة بالثلوج، نحو هذا البحر البعيد. حينها، من أعلى الصخور، نستغرق في النظر إلى الأسفل، نرى، في قاع الهاوية، البحر المتوسط، كأنه في متناول اليد. في العصر الروماني، كانوا يرغمون المحكوم عليهم بالإعدام

بلعب «الثلاث حصوات». من أعلى حوالي مائتي وخمسين متراً، وقد أخطئوا في قياس الأبعاد، كانوا يسعون إلى الحظ بالقاء ثلاث حصوات، غير أن واحدة منها لا تسقط في البحر. وبالتالي لم يكونوا يتحصلون على حريتهم. في قاع الهاوية، لم يكن البحر ينتظرهم وانما الموت.

حاولت أنا أيضاً. فقدت الحصوة التي ألقيتها بكل ما أوتيت من قوة سرعتها واختفت بين الصخور. لحسن الحظ لست محكوماً عليه بالإعدام ولا أعرف مصير آلاف الأسرى الذين، على مدى التاريخ، هلكوا في هذه الهاوية. ومع ذلك أعتبر نفسي سجيناً، سجين هذا المشهد للبحر الأزرق الذي يمتد إلى ما لا نهاية. أظل متوسطياً، حتى وإنْ كنت أحيا منذ سنوات طويلة في عاصمة أوروبية ـ في باريس، الفاتنة للغاية، المذهبة للعقل للغاية و... هيا بنا ! لنقل الأكثر غدراً من بين جميع المدن. البحر أزرق في غرابة. في الحقيقة، ليس فيروزياً، أنه أزرق نيلي من خلال الأمكنة وأزرق غامق، ولكن لا، ليس كذلك. قال هوميروس في «الأوديسا»، أن هذا النطاق الرحب له لون النبيذ. وهذا حقيقي، رأيته بأم عيني يأخذ وقت الغروب اللون الأحمر البنفسجي. بيد أننا في وضح النهار. علاوة على ذلك، إنه الربيع، وقد خرجنا من شتاء منح كيكوباد القوة باحتلال هذه المكانة الرفيعة. للبحر الآن رَنّة الخزف التي زينت قديماً حوائط القصر الذي لم يتبق منه اليوم سوى الأطلال. يستدعي سحر هذه النسور ذوات الرأسين التي تحيطها صور الحيوانات والنباتات التي رأيتها على القطع الخزفية في قصر كيكوباد، حيوانات خرافية، ببغاوات واقفة على أغصان وأسماك لهو في المياه. يأخذ لونه يُحيي لمعان الخزف السلجوقي المهشم والمحطم بفعل الزمن والذي ظل مطموراً في الأرض لقرون. وهذا ما

جعله غامضاً للغاية، جذاباً للغاية وبعيداً جداً. فائق الوصف، كما أشار مليح صفوت اليه بهذه الأبيات:

من الممكن أن نفهم الأزرق
من الممكن أن نفهم البحر
ولكن من يفهم البحر الأزرق؟

يتأتى إلى ذهني بيت شعري شهير لشاعر آخر، أمضى أجمل سنوات حياته في سجن بورصة[21]: «أجمل البحار هو الذي لم نذهب إليه بعد».

أفكر في قايغوسوز الذي رحل رفقة الدراويش، ليس إلى مصر وإنما إلى رحلة داخل نفسه، سالكاً الطريق نحو هذا البحر الذي لم يدركه أبداً. ذهب إلى القاهرة، وأسس بها تكية كي ينشر العقيدة البكتاشية. وحتى إذا كان، بحسب الأسطورة، دُفن على ضفاف النيل[22]، فإنه رحل إلى آخر طريقه. والآن، هذا الطريق خال وتغير كلياً. لا أحد يقتفي أثر قايغوسوز ولا أحد يؤوب من هذه الرحلة.

آلانيا ـ باريس، 2002

الهوامش

1- قلندر، كلمة فارسية ـ تركية الأصل كانت تطلق على الشخص المتواضع الزاهد في أمور الدنيا، ونسبة إليها تأسست الطريقة الصوفية القلندرية. (المترجم)

2- عبد الباقي غولبنارلي (1900 - 1982) ، متخصص في الأدب العثماني والأدب الصوفي.

3- عبد الجليل لوني جلبي (1680 - 1732) ، شاعر ورسام منمنمات ـ ويسميها البعض «فن التزويق» ـ عمل في خدمة السراي .

4- إمارة قرمان، دولة إسلامية نشأت عام 1250 جنوبي الأناضول. حكامها من أصول أرمنية حيث أسسها نوري الصوفي الأرمني الذي اعتنق الإسلام. وقد نصبت اللغة التركية (ذات الأحرف العربية) كلغة رسمة للدولة. وقف القرمان مع السلطان العثماني خلال محاربته للمماليك في الشام، وكانت الانتصارات العثمانية على المجريين شمالاً، أدت إلى ولاء القرمان طواعية للسلطان مراد العثماني ونهاية امارة قرمان عام 1487 بعد 237 سنة من تأسيسها. (المترجم)

5- عاش سلاجقة الأناضول عصرهم الذهبي أثناء حكم السلطان علاء الدين كيكوباد الأول، إلا أن مقتل الحاكم مسموماً أدى إلى حدوث اضطرابات في البلاد، أسفرت عن تمرد البابائيين بقيادة اسحاق التركماني. وعلى اثر معركة كوسه داغ عام 1243 الميلادي، احتل المغول الأناضول ملحقين بها خراباً و دماراً، ومع تقهقر الهيمنة المغولية أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، بدأت الإمارات التركمانيه تطفو على سطح الأحداث حيث استطاع التركمان المستقرين في المناطق الحدودية تشكيل إمارات هي قارامان، حرميان، أشرف، حامد، علاعية، رمضان، دولقادر، تاج الدين، منتشة، جاندار، بروانه، صاحب آتا، كارسي، ساروهان، ايدين، اينانج وعثمان اوغلرى. (المترجم)

6- «قابوسنامة: كتاب النصيحة» تأليف كيكاوس بن إسكندر بن قابوس بن وشمكير، الشهير بكيكاوس زياري، وترجمة أمين عبد المجيد بدوي ومحمد صادق نشأت. يُعرف

أيضاً في الأدب الفارسي باسم نصيحتنامة، أحد روائع الأدب الفارسي ومن أشهرها. وهو مكتوب على شكل نصائح يعطيها أمير شيخ حكيم لابنه، يتناول فيها الأمور الدينية وآداب اللياقة وقواعد الحياة الخاصة والمعاملات والتعليم وشئون الحكم. ويختم الكتاب بآداب أهل التصوف. (المترجم)

7- بطرس الأكبر أو بيتر العظيم أو بيتر الأول أو بيوتر ألكسييفيتش رومانوف (1672 - 1725). حكم روسيا بدايةً من عام 1696 مشاركاً لأخيه غير الشقيق إيفان الخامس في الحكم حيث أن الأخير كان يعاني المرض. يعتبر بيتر العظيم أحد أعظم من حكموا روسيا على مدار تاريخها. قاد سياسة التغريب وسياسة التوسع التي حولت روسيا القيصرية إلى الإمبراطورية الروسية والتي باتت إحدى أهم القوى على مستوى أوروبا. وهو مؤسس مدينة سانت بطرسبرغ والتي مثلت عاصمةً لروسيا على مدى أكثر من قرنين من تاريخها. أجرى عدة إصلاحات في الإدارة والمالية والصناعة والمجتمع. كما أسس جيشاً حديثاً وبنى أسطولاً بحرياً عظيماً لروسيا. (المترجم)

8- طبق من أرز ولحم وتوابل. (المترجم)

9- ولد الكاتب الإيطالي (إيتالو كالفينو) عام 1923 في كوبا، ثم عاد مع أسرته إلى إيطاليا وهو طفل صغير. درس الزراعة في جامعة فلورنسة. وكان مهتماً بالسياسة، فالتحق بالحزب الشيوعي الإيطالي، وعمل في صحيفة الحزب. كان يكتب المقال السياسي إضافة إلى كتابته المقالات الأدبية، والثقافية عامة. ثبتت مكانته كأحد أهم أدباء ايطاليا بعد الحرب العالمية الثانية. توفي كالفينو في عام 1985. (المترجم)

10- نصير مذهب المتعة الذي يرى إلى أن اللذة والسعادة هي الخير الأوحد أو الرئيسي في الحياة. (المترجم)

11- المقصود بلوفيديف البلغارية حالياً، ثاني أكبر المدن بعد صوفيا، وليس فيليبوبوليس العربية، المدينة السورية «الشهبا»، التي تقع بمحافظة السويداء. (المترجم)

12- مدينة تونسية. (المترجم)

13- مدينة تركية. (المترجم)

14- نديم (1730 -؟)، شاعر من شعراء السراي.

15- الشيخ ادى بالي (1206-1326)، الملقب «بالملا»، عالم ديني بارز. يعتبر المؤسس الروحي للامبراطورية العثمانية، وهو أول قاض بها. ولد في قرمان، المدينة السلجوقية، وهناك مصادر ترى إلى أنه هاجر إلى الآناضول من خراسان. تعلم على أيادي كبار علماء دمشق.

16- تجلي الذات الاهية للصوفيين. (المترجم)

17- جيروم بوش (1453-1516)، رسام هولندي. (المترجم)

18- إقليم يقع بين بلغاريا ورومانيا. (المترجم)

19- ظهرت ثورة الشيخ عبد الرحمن بدر الدين في فترة حكم السلطان العثماني الخامس محمد الأول (1379-1421) الذي وصل إلى السلطة بعد صراع مع إخوته أبناء السلطان بيازيد الذي كان قد قتل على يد تيمورلنك. كان والد الشيخ قاضياً لقلعة سيماونه وأميراً على عسكرها. وكان هو نفسه من فتح تلك القلعة الواقعة في الجزء الأوربي من تركيا. أخذ بدر الدين العلم عن والده وحفظ القرآن الكريم كعادة تلك الأيام، ثم بدأ ترحاله إلى مصر حيث قرأ على مولانا مبارك شاه، وحج معه إلى مكة حيث قرأ على الشيخ الزيلعي، ثم عاد إلى القاهرة ليقرأ على الشيخ البايبوري وأصبح فيما بعد مريداً للشيخ سعيد الأخلاطي، وأدركته «الجذبة الصوفية». ثم انتقل إلى حلب فقونية... وأسلم على يديه أمير جزيرة ساقز المسيحي، قبل أن يعينه موسى بن السلطان بيازيد قاضياً لعسكره. وعندما قام السلطان محمد بقتل أخيه موسى واستفرد بالسلطنة قام بحبس الشيخ مع أسرته في مدينة أزنيق بتركيا. هناك بدأ الشيخ بدر الدين دعوته للمساواة في الأموال والأمتعة وعدم التفريق بين المسلم وغير المسلم في العقيدة، فالناس إخوة مهما اختلفت

عقائدهم. وانضم إلى دعوته الكثيرون، وانتشر دعاة مذهبه في الأرجاء. وكان بينهم بير قليجة مصطفى. قرر السلطان محمد التصدي لهذه الدعوة بعد أن شاعت، فأرسل جيشاً على رأسه القائد سيسمان، لكن الثوار بقيادة بير قليجة تمكنوا من هزيمة هذا الجيش وقتل قائده. فأرسل السلطان جيشاً آخر بقيادة وزيره الأول بايزيد باشا الذي تمكن من الانتصار على بير قليجة الذي أعدم بعد أسره. لكن الشيخ بدر الدين انتقل إلى منطقة دلي أورمان في بلغاريا، وواصل دعوته هناك. واستمر تدفق الأنصار عليه. فانتقل السلطان محمد عندئذ إلى سيروز في اليونان وأرسل المزيد من القوات لمحاربة الثوار، فهزموهم وتوارى الشيخ بدر الدين عن الأنظار. لكنه وقع في أسر السلطان إثر مكيدة وأعدم بناء على فتوى من العلماء بعد أن ناظرهم. يُتهم الصوفيون بأنهم دعوا إلى موقف سلبي من الحياة، وخاصة من قضية مواجهة الاستغلال والطغيان، لكن ثورة الشيخ بدر الدين تؤكد أن الثورة على الفقر والاستغلال قد تتخذ أي شكل وفق الشروط التاريخية السائدة. وتبقى هنا صرخة الحلاج التي تضع الإنسان في مركز الكون الفعلي مدوية عبر العصور. (المصدر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، د. محمد حرب، دار القلم، دمشق)

20- جم سلطان (1459 - 1495)، المعروف أيضاً باسم زيزيم لدى الغرب أو جمجمة لدى بعض المؤرخين العرب، ابن السلطان محمد الفاتح. كان جم والياً على قرمان، ومقره قرمان. صارع أخاه بايزيد الثاني على العرش، غير أن الأخير تغلب عليه في معركة «يني شهر» في عام 1481، وانفرد بالعرش، فلجأ جم إلى سلطان المماليك في مصر قايتباي، ثم عاد ثانية إلى آسيا الصغرى ليحارب أخاه مؤيداً من سلطان مصر، غير أنه هُزم ثانية، فأوى إلى فرسان القديس يوحنا في جزيرة رودس في عام 1482، ونقله هؤلاء إلى فرنسا التي سلمته إلى بابا الفاتيكان، ثم استعاده ملك فرنسا، وغدا ورقة رابحة في يد أي تحالف أوروبي مضاد للعثمانيين ومصدر قلق لأخيه السلطان بايزيد الثاني، حتى

توفي جم سلطان في عام 1495، وقيل أنه توفي مسموماً بموسي حلاقة، وبتدبير من أخيه السلطان بايزيد. (المترجم)

21- ناظم حكمت، ناظم حكمت ران (1902 - 1963) شاعر تركي شهير ولد عام 1902 لعائلة ثرية ومتنفذة، عارض الإقطاعية التركية وشارك في حركة أتاتورك التجديدية ولكن بعدها عارض النظام الذي أنشأه اتاتورك وسجن في السجون التركية حتى 1950 ، فر إلى الإتحاد السوفييتي، وتوفي في موسكو عام 1963. تميز شعره ببساطة ساحرة ومواقف واضحة. (المترجم)

22- توجد تكية المغاوري، بعد أن استقر قبغوسوز في مصر وأسمى نفسه «عبد الله المغاوري»، في مغارة بجبل المقطم، حيث دفن فيها. (المترجم)

طرزان، مركز أفندي،
صاروخان بابا ومانيسا،
بلد الأمراء العثمانيين الورثة

في الآناضول، وفي مدن أخرى بدون شك، تُبنى مدن في الجبال وتصبح تدريجياً عنصراً، امتداداً ـ أذكر من ضمنها بورصة، آماسيا، أو قيصرية ـ ولكن مانيسا، من السهل، تظهر كما الجبل، ضخمة، عملاقة ومنعزلة. وعندما تقتربون منها، تنبجس المنارات التي ترجع إلى العصر العثماني والقباب المصنوعة من الرصاص أمام أعينكم. لا نرى الضواحي الفقيرة التي تتراص على منحدر الجبل، إلا إذا غامرنا بتسلقه فقط. ينساب نهر غديز إلى الجنوب عبر الكروم. مياهه هجرته صيفاً كشتاء. إذا كان يتلوى ببطء، فهذا إلى حد ما بسبب الجبل الذي ـ بفتحاته التي تشق منحدراته ـ يتبدى كأنه يفضي إلى الوادي، بين عناقيد العنب المبسوطة كي تجف على العصي الطويلة، ومزارع التبغ حيث يأتي الفلاحون وقت الليل لقطف أوراقه على ضوء المصابيح والدروب الترابية. نعم، وقبل أي شئ، مانيسا جبل. قبل أن نتكلم عن هذه المدينة التي تشغل مكانة مهمة وسط الأماكن التي أمضيت فيها طفولتي، يتحتم علي أن أتكلم عن الجبل. أو بالأحرى جبل الدرويش، طرزان مانيسا، الذي ينتمي اليه حميمياً. وأيضاً يوسف آتيلغان، الذي أمضى جزء كبيراً من

حياته بعيداً عن دوائر اسطنبول الأدبية والذي، بقدر كونه مالك أراض، اختار العيش في فاقة وعوز، ليس بعيداً عن هنا، في صاروخانلي. هل من اللازم أن أقول أن زبرجد، بطل إحدى رواياته، «نزل الوطن الأم»، كان إحدى الشخصيات المثيرة للاهتمام في القرن العشرين؟ حارس ليلي في نزل تتناقل عائلته هذه المهنة أباً عن جد، يحيا في فراغ تام، متابعاً رحلة عبر تاريخ مانيسا الحالي. إنه متقشف وصاحب رؤيا، درويش يتحسس طريقه بين الخير والشر ويجتاز حدود الجنون، شيطان سجين نفسه.

مانيسا، على الرغم من أن اسمها لا يذكر في الرواية، مدينة «نزل الوطن الأم». بعد أن كتبها، ربط المؤلف بين العالم الداخلي للحارس الليلي، أحلامه، غواياته التي تقوده رويداً رويداً إلى الجنون والانتحار، وبين تاريخ هذه المدينة التي «ترقد عند سفح الجبل» وإلى أيام الدمار الذي رافق حرب الاستقلال الوطنية. كما قال لي عجوز قابلته في الحي التجاري أن زبرجد يعتبر رمز مانيسا إلى حد ما، «الشهير برؤياه». غير أنه يحمل نصيبه من المعاناة، الوحدة، الكبت الجنسي والذكريات. ولذا كان وجهاً «بلا عظام» وأن قسماته (أطراف حواجبه، جانبي فمه، أنفه) هابطة نوعاً ما. يثير الجبل خوف السائحة الشابة التي تأتي إلى هنا للمرة الأولى والتي سقط زبرجد في حبها لما تغادر النزل.

في وضح النهار، مع قدوم القطار متباطئاً من الشرق، إذا التفت المسافر الذي يتبادل الحديث مع جاره الذي يقابله أو يقرأ صحيفته إلى اليسار حيث آخر المسافة، يتملكه الرعب. الجبل ينتصب مدوخاً، وصخوره المنحدرة كأنها جاهزة للفتك به وكأنها سوف تطمركم تحتها. منارات الضيعات (أو المدينة، إذا فضلتم) والطرق المظللة بالأشجار تنتشر على جانب قمة الجبل.

أنا لم أصل إليها بالقطار ولا حتى دخلتها من الشرق. غير أنني أستطيع أن أقول لكم بأن رؤية هذا الجبل أصابني بالخوف. آتيلغان لزمني بعض الوقت كي أعتاد على هذا المنظر. كان بيت جدي يقع في آكخيصر. حينما كنت طفلاً، كنا نأتي إلى هنا لتمضية إجازة الصيف. ونمضي بضعة أيام في مانيسا قبل أن نبلغ أزمير كي نستحم في شاطئها، تحت ظلال أشجار التين. آنئذ، لم أكن أهتم بجبل سيبيل (الاسم القديم لجبل مانيسا) الذي يروح طرزان ويجيء عارياً عليه، صيفاً وشتاء، ويحيا بمفرده في كوخ راقد في أعاليه.

في ذاك الوقت، كنت أجهل كافة أنماط حياة هذا الطرزان ولم أكن أعرف أنهم كلفوه بغرس كافة أشجار المدينة. لم أكن أشغل ذهني بما يحكى عنه في هذا الشأن. يقال أنه كان ابن أحد البكوات الأثرياء وأنه بعد إخفاق غرامي أخذ يعري صدره، ثم، بعد رؤيا معينة، لجأ إلى الجبل كانسان محب للبشر، أو كأمير مجبر على المنفى. وقد رأوا هذا الرجل، الذي لا يملك أية سمة لرجل خارج عن القانون ويتقاسم حياة الحيوانات، وقد بنى لنفسه كوخاً. زعم البعض أنه جاسوس روسي. بيد أن لاشئ من كل ما سبق يشغل بالي، بيد أنني كنت أسمع شارد الذهن كافة هذه الأساطير التي ينتحلونها عنه. اليوم، أعرف أن طرزان مانيسا كان تركمانياً من كركوك، يدعى أحمد بدوي، وحينما قدم إلى تركيا شارك في الحرب ضد اليونانيين، ثم في أشغال إعمار مانيسا التي دمرتها المواجهات. قرر أن يحيا بين الطبيعة وجعل كل اهتمامه بحماية البيئة، إلى حد أنه يمكن اعتباره من أوائل الايكولوجيين. منذ طفولته كان طرزان مانيسا يتسلق بنشاط الجبال كل منتصف ظهيرة، وليس فقط خلال رمضان، يطلق قذيفة مدفع متروك من أيام الحرب، يمشي في الطريق الرئيسية وقد سمرت الشمس

بشرته، يحمل باقة ورد إلى كل بيت وهو ينثر احترام طبيعتنا. اليوم، يتسلق قليلاً في خيالي. أعده أب الحركة الايكولوجية، رجل قديس من الممكن أن يتخذه أبناؤنا نموذجاً. عند موته، في عام 1963، كنت أبلغ الثانية عشرة من عمري. لم تكن الايكولوجيا بلغت موطني. غير أن البراعم التي غرسها أصبحت منذ فترة طويلة أشجاراً وبفضله كسا الاخضرار المدينة وامتلكت إحدى أجمل حدائق الاقليم. لم تفقد الحديقة بعد جمالها، غير أن التمثال ـ التمثال النصفي ـ الذي شُيّد لذكراه كان ذا مقاس مثير للسخرية وبشعاً بصورة مخيفة. وهكذا عرفت عن علم أن قيمة هذا الطرزان، التي قدرت، للأسف ، متأخرة، كانت راقية كما كانت سريعة وقوية. كانت النساء تعمل على إغوائه، وبعد موته، وجدت هذه الرسالة في كوخه الصغير المجرد من النوافذ :

طرزان، أخي، أنا ربة بيت شابة. طلقت من زوجين لأنهما لم ينجحا في أن أحمل. أملك بيتين وبستانين. إذا رغبتني وإذا منحتني الطفل، أقسم لك أنني سوف أعتني بك. أطلب منك فقط أن تجتمع بي ليلاً حتى نتبادل بلسم المصير وأن نتناول هذا البلسم. أضع شرطاً ثانياً : سوف تهبط من الجبل وتمكث إلى جانبي. كفاك من اللهو مع الضباع والنموس. أكتبْ لي فوراً، نادني، وسآتي اليك من فوري.

أجبني...

فاطمة، من قرية مريميري،

16 يناير 1957 .

ظل طرزان أصّماً تجاه هذا النوع من العروض وعاش وحيداً في كوخه كدرويش، بيد أنه لم ينعزل طالباً التوبة. عمل على أن ينشر الخضرة في محيطه

ويحقق البهجة للأطفال الذين يحبهم كثيراً. فضلاً عن ذلك، على وجه العموم، إذا اعتقدنا بالمؤرخ عمر لطفي بركان، لم يمض «الدراويش الأتراك المستوطنون» وقتهم في الصلاة ورقص رقصتهم الطقسية؛ إذ كانوا يعملون في الأرض التي منحت لهم، يطحنون الحبوب في طاحوناتهم، يحرثون بساتينهم ويسهرون على حقولهم المزروعة بطيخاً وشماماً. يعرف أنهم ساهموا كثيراً في الانتقال من حياة الترحال إلى الحياة الأساسية. حينما، تحت حكم صاروخان بك وأولاده، استقر هؤلاء الرجال، رجال الله القادمين من خراسان، رواق بابا، عريك دده، صوفو سويندیك، خاكي بابا، صندل بابا، كوتوك بابا، أو يولاغلدي بابا[1]. في هذا الإقليم الذي كان وقتذاك بكوية، نظموا جماعتهم، وأسهموا بقوة في الحياة الاجتماعية والسياسية. لا أخفي أنني في طفولتي كنت شغوفاً بمغامرات يولاغلدي بابا والأساطير العديدة التي جمّلته. واليوم أعرف أن يولاغلدي، حيث يعني اسمه «من وجد الطريق»، هجر حياة صاخبة، ودخل إلى طريقة البكتاتشية، وأن أبيه كان شيخاً، درويشاً قادماً من خراسان، وأنه نفسه مدفون قرب نبع في قرية غورل، وأن لا يتبقى من تكيته سوى بعض الجدران المهدمة. أعرف أيضاً أن الشيخ عثمان بابا، الذي استقر في مانيسا قبل أن يرتقي محمد الفاتح العرش، ليس له ضريح في المدينة، ولكن لم تزل تحيا شخصيته القوية، معجزاته، سمته المتمردة، التي جعلته يقف على قدم المساواة مع كل القوى الدنيوية، في السِيَر. على وجه الخصوص، يبقى حياً في قلوب الناس. لا أقلق من تخيله حالقاً لحاجبيه، لحيته وذقنه، ثم يجوب الجبل، مشاركاً في الحروب إلى جانب بقية الدروايش ومصلياً لرفع الروح

المعنوية للفرق العسكرية. للأسف، توجد تكية عثمان بابا ، الذي عاش في مانيسا ووسم هذا الاقليم ببصمته، في بلغاريا.

***

ولكن لنترك هنا تكايا مانيسا والدراويش الذين يستريحون في الضواحي ونرجع إلى الموضوعات المألوفة. قلت يوماً ما أن طرزان مانيسا الجميل ويوسف الكتاب المقدس، وكافة الأبطال قاوموا مبكراً النساء. حتى وإن لجأنَّ، لتنمية سلطة الاغواء، إلى هذا «الاكسير المقوي» الذي يطلق عليه «بلسم المصير». تروى حكاية مسلية عن هذا الترياق، كأشكال أخرى، الذي يزيد القوة الذكورية. ألم تكن مانيسا مدينة الأساطير؟ كافة الأحداث التي تتعلق بمشاهير المدينة، من نيوبي إلى طرزان ومن صاروخان بابا إلى مركز أفندي، مذكورة في الأساطير المدونة كما ينبغي. ولكن، حسب أقوال المتخصصين، تاريخ بلسم المصير، الذي يلقى به، خلال عيد النوروز، من أعلى منارة مسجد السلطانة، ويتدافع الناس عليه في هرج ومرج، مبني على أحداث واقعية.

لا أعرف إذا كنتم تعرفون منغلي غيراي، خان تاتار القرم. تعرفون على الأقل إحدى بناته، حفصة، التي أنجبت إبناً للسلطان سليم الأول والتي نشأت ضمن وصيفات «الوالدة سلطانة». ذات يوم، قدمت إلى مانيسا، برفقة الأمير الوريث وبنت المسجد الذي يحمل اسم السلطانة. بينما أصبح ابنها السلطان سليمان الأول (القانوني)، الذي يطلق الأوروبيون عليه (العظيم). حفصة، المريضة مرضاً خطيراً، قطنت مانيسا، حيث أنشأ سليمان بكوية تابعة للعرش. كان مرضها عضالاً. يائسة من الشفاء، لجأت الوالدة سلطانة، التي

تشحب وتذبل بسرعة كبيرة، إلى البلسم الذي منحه لها مصلح الدين مركز أفندي، عالِـم نصف مجنون أرسلوه إلى المشفى. ومع ذلك، كما يجرى دوماً في الحكايات، شفيت في التو واللحظة. هل يكفي هذا الدواء الشهير؟ سوف أكشف لكم عن وصفته بدون انتظار :

قرنفل، زهرة الربيع، زنجبيل، جالانجا، فلفل أسود، دردي، زبيب، حب العروس، جوزة الطيب، ينسون، خيار، صمغ، زعفران، جذور السكين، خردل، قشر البرتقال، قرفة، خل، نيلة، خلاصة عرق السوس، بريت (أوكسيد الباريوم)، ترياق، فيلانتوس أصفر، بقدونس، كمون، كركم، زهر القرفة، زهر جوزة الطيب، شونيز، فلفل أحمر، راوند، حمض ليمونيك، سنا وسني، فانيليا، نبق، سكر.

هكذا رأينا أن مداواة مركز أفندي شفت حفصة سلطان، ولذا عمل سليمان على تحسين صحة شعبه. طلب صنع هذا الدواء، تحت صورة عجينة، بكميات كبيرة وألقي به إلى الناس من أعلى منارة مسجد السلطانة. ولذا، في كل عام، في الربيع، مع عيد الفصح، عندما تخضر الطبيعة، وتنمو الأوراق وتنساب المياه، يتخاطف سكان مانيسا بلسم المصير. في الواقع، من الممكن أن نشتريه من كل مكان، حتى في محال البقالة المجهزة جيداً. أيضاً، هل من اللازم ابتلاعه؟ حاولت، ولكن معدتي لم تتحمله.

لمركز أفندي، الذي أنقذ حياة حفصة، تمثاله المنتصب قبالة مسجد السلطانة. جالساً في سترته، معتمراً عمامة ومرتدياً بنطالاً عتيقاً، يتأمل المسجد ذا القباب الضخمة المصنوعة من الرصاص الذي شيدته الوالدة سلطانة. نستدير ناحية الجبال ونفعل مثله. التمثال يدور، بالتالي، نحو مرادية، ثم من جديد نحو المسجد والقباب. فهمتم أنه يدور حول نفسه، كما الأرض، أو، إذا

شئتم، ككباب يُشوى في قيظ صيفي. من الضروري أن أقول أن الشيخ كان من هؤلاء الذي يصلّون لكي يبقى كل شئ على حاله. لنشرح.

ذات يوم رائع، في تكية كوجا مصطفى باشا، في اسطنبول، بينما يسمع الناس وعظة الشيخ سنبل أفندى، دخل شاب نحيل، خجول، وسيم وذكي. تحاشى النظر إلى وجه الشيخ، ولكن كان له أيضاً وجه أكثر المريدين خضوعاً. كانت عينه حية، الأذن مترصدة، وكان كأنه يبحث عن شئ ما، ينتظر وحياً من عالم غير مرئي. عمل كل جهده لئلا يقع تحت بصر الشيخ. حينما بدأت الخطبة، اختبأ خلف عمود، في مدخل الصالة، كي ينصت. مثل تلميذ في مدرسة، لا يفهم كثيراً عن الشيخ، غير أن صوت سنبل أفندي اخترقه كمياه جارية ترطب قلبه. وفجأة، اتضح كل شئ، لم تعد الكلمات ذات رنات بسيطة وأخذت تتشبع بالمعاني. سقطت الحجب التي تخفي نظرته والعالم، ليس العالم الدنيوي، وانما عالم «المعرفة»، ينبسط كبساط شرقي متعدد الألوان، بينما ألوان النهار تنمحي وتتلاشى في الترميدة[2]. وبالنسبة لمن سمع النداء يذوب في الذات العليا، لا عودة ممكنة. ولهذا أصبح موسى بن مصلح الدين أحد مريدي سنبل أفندي، عازماً على متابعته ويتدرب على يديه. ومع ذلك، لم يجسر أبداً على النظر في عينيه. متواضعاً وخجولاً، غاض الطرف دوما.

ذات يوم، أخضع سنبل أفندي مريديه لاختبار صعب. يستلزم الأمر الاجابة عن سؤال: «اذا كان الأمر لكم، كيف ستخلقون العالم؟». بدون ادعاء الخلط بشئون الله، أجاب كل تلميذ باجابة مختلفة. قال أحدهم أنه كان سيمحي الشر، قال آخر أنه سيمنح كل فرد بيتاً وعائلة، فيما قال ثالث أنه سيلغي كل الفصول ويجعلها ربيعاً دائماً. أراد البعض إلغاء عدم المساواة،

العنف، البؤس. ظل مصلح الدين كعادته صامتاً في ركنه. سأله الشيخ : «وأنت، أي عالم ستخلقه ؟» أجاب: «سأترك كل شيء على حاله، العالم جميل هكذا، كما خلقه الله، كل شيء يجب أن يبقى على حاله. لن أغير شيئاً، لن ألمس نظام العالم، سأتركه كما هو.».

بعد هذه الاجابة البسيطة، سُمّي مصلح الدين بمركز أفندي. في اليوم الموعود، وكما يجرى مع كافة الدراويش، بإذن من الشيخ، أخذ طريقه ينام الليل في الكهوف أو في الأشجار الجوفاء لكي يهرب من اللصوص، حتى بلغ ذات صباح مشرق، بلد آل صاروخان. ولكنه لم يدخل إليها خالي الوفاض. بفضل المعارف التي تلقاها في اسطنبول، استطاع أن يداوي المرضى في المشفى التي بنته أم السلطان سليم الأول، بزمي ـ عالم سلطانة. كتلميذ في مدرسة، بدلاً من أن يفجر الينابيع، فضَّل أن يدواي المرضى. ولكن في آخر الأمر ـ نجهل إذا كان طُرد من كل الأمكنة، بمقتضى القول المأثور «من يقول الحقيقة يُطرد من تسع قرى» ـ، وجد نفسه وحيداً في الشارع كهريرة جائلة. وهكذا جاب الطرق، النزل، القوافل... أو بالأحرى الكهوف والأشجار الجوفاء. وداعاً باليكسير وصباح الخير يا اسطنبول.

ولكن لا يجب أن تتعجلوا مغادرة باليكسير. كيف لكم أن تعرفوا إلى أي مدى تحتل هذه المدينة مكانة سامية في حياتي ؟ ولدت في غازيانتب، غير أن باليكسير شهدت أولى ذكرياتي. في هذه المدينة، التي تعد عاصمة بكوية كاريسي، التي أمضيت بين جنباتها طفولتي وبدأتُ أذهب إلى المدرسة. في المدرسة الابتدائية، مدرسة 6 سبتمبر/ أيلول، سمعت لأول مرة اسم مركز أفندي. بالتأكيد، لم يثر اهتمامي بشيء، لأن قراءاتي تركزت على تكساس

وتوم ميكس وكيناوا الذي سلخ الهنود الحمر جلده. مرت الأعوام وغادرت باليكسير معتقداً أنني لن أرجع اليها أبداً. ومع ذلك، حينما عدت اليها بعد أربعين عاماً، حين حكيت ذكريات طفولتي في «في بلاد الأسماك الأسيرة»[3]، عرفت أنني لم أقطع صلاتي مع هذه المدينة. ورغم الاستقبال البارد الذي ادخرته لمركز أفندي، أعتقد أنني أعطيها جل قدرها.

في الواقع، حمل مركز أفندي الكلام الطيب إلى باليكسير ولبث فيها قبل زمن بعيد، خمسمائة عام بالكاد. هذا الشيخ، كما رأيتم، كان ناسكاً. يرجع عقبه في الطائفة إلى نور الخلوتي. ابن أخته، عمر بن أكمل الدين اللحيجي، اعتكف أربعين يوماً وليلة في شجرة جوفاء. مركز أفندي، هو أيضاً، نام في أشجار جوفاء. كان ذا هيئة منهكة، بشخصه المهمل وثيابه الممزقة. تخيلوا هذا الدرويش، الذي حرم على نفسه اقتناء قط خشية أن يضر بالفئران، والذي ظل طوال حياته يكلم الحيوانات، أعار معطفه لِحَمَل، وحتى الذئب، لكي يقيهما البرد. تخيلوه قادماً إلى باليكسير نصف عار. هذه المدينة المدللة لدى الأمير سلطان لم يكن يشغل بالها سوى العجوز الزاهد المرتدي عمامة سوداء. من وجهة نظره، يخرج الأوفياء، الواحد اثر الآخر، من المسجد. من أي مسجد؟ ستسألون. من الممكن أن يكون اسكي جامي، المسجد الكبير، المبني وسط أجمل بقعة في البازار، الذي يقع خلف ضريح زغانوس باشا، الوزير الأعظم، صهر ووالد زوج محمد الفاتح. آنذاك، انتصب كثير من المساجد في باليكسير، غير أن أحداً لم يرد أن ينصت لشيخ ينصح وهو يغلق عينيه. إذ أن مركز أفندي يغلق عينيه ويتابع حديثه ساهياً، كما في نشوة، بينما كافة المستمعين رحلوا. حينما ينهض الكناس قائلاً : «فضيلة الشيخ، بعد إذنك، يتحتم علي

الذهاب إلى الكروم، لدي كثير من العمل. ها هي مفاتيح المسجد. لا تنسَ أن تغلقه وقتما تخرج»، يفتح عينيه ويلاحظ أنه لم يعد هناك أحد في المسجد. لماذا ؟ سوف تسألونني. ربما لأن الملائكة تسمعه. ولكن في هذه اللحظة، رجع الأوفياء وأنصتوا حتى نهاية العِظة.

إذا مررتم، في يوم من الأيام، ليس عبر باليكسير وانما عبر اسطنبول، لا ترددوا في زيارة مسجد مولانا كابي، باب مولانا. كتب أبو السعود أفندي هذه العبارة، حيث تحولت الحروف العربية إلى رموز، التي تشير إلى تاريخ موت الدرويش: «لينير الله مركز الدائرة !». سترون، علاوة على ضريح مركز أفندي، حجيرته وبئر الأمنيات. دونوا أغلى أمنياتكم على ورقة وألقوها إلى قاع البئر. أو في الليل، حينما لا يوجد أحد، عندما يلهو مركز أفندي بالكرة مع الملائكة، انحنوا على البئر وصيحوا بأمنيتكم في العتمة. سوف تروا، في يوم ما، أن الشيء الذي تمنيتموه يتحقق. واذا لم يتحقق شيء، اذهبوا إلى ماركو باشا، شوف يجد بالتأكيد حلاً.

***

فضلاً عن تمثال مركز أفندي، تأوي مانيسا شخصيات عدة وسمت بختمها تاريخ المدينة. صاروخان بك، على سبيل المثال.

صاروخان بك، الذي غزا مانيسا في 1313، كان أميراً للسلطان السلجوقي مسعود الثاني. كان محارباً حقيقياً، ومع ذلك استولى على المدينة بحيلة، اذ خدع البيزنطيين، ذات ليلة دامسة، بأن علق الشموع على قرون الماعز. أعده الشعب والياً وخلدوا ذكراه على نفس قدم المساواة مع أتقياء خراسان الذين

اصطحبهم معه. يخبرنا العمري[4]، في تاريخه، أن امارة صاروخان، زمن الإمارات، كانت مستقلة :

يحكم صاروخان مانيسا. تحد إمارته من ناحية الشمال الغربي إمارة يخشي ومن الجنوب إمارة دنيزلي. يسيطر على جزيرة ليسبوس، خمس مدن وعشرين حصناً. كان لديه جيشاً قوامه عشرة ألاف جندي صارم، ولكنهم جنودٌ صالحون.

لم يفتأ الرحالة العربي بن بطوطة، الذي بلغ مانيسا [5]، ذات نهار ربيعي، يثني على كرومها، والمياه الجارية و، بالطبع، جبلها. ثم ذكر أن صاروخان قدم رفقة زوجه في الفجر كي يصلي على جثمان ابنه الميت قبل بضع شهور :

والولد قد صبر، وجعل في تابوت خشب مغشى بالحديد المقزدر، وعلق في قبة لا سقف لها لتذهب رائحته، وحيئذ تسقف القبة، ويجعل تابوته ظاهراً على وجه الأرض، وتجعل ثيابه عليه. وهكذا رأيت غيره من الملوك فعل [6].

من الممكن أن تتخيلوا أن مع وفاة صاروخان بك قام ابنه، الياس بك، الوفي في تكريمه، بتغطية تابوته بملابسه، وترك غطاء قبره مفتوحاً لبعض الوقت. تمثال صاروخان بك، حسب أقوال عاشق باشا زاده، الذي ينتمي إلى عالم الأولياء عن عالم الأبطال، يتقلد سيفاً وملتفتاً نحو مانيسا، كأنه يتأسف على ما آل اليه حالها اليوم. التكايا، البيوت المشتركة التي شيدها الشيوخ القادمون من خراسان في أثره، المساجد والمدارس التي شيدها دمرت أو اختفت بين البنايات الشاهقة. لم يزل كثير من صروح العصر العثماني باقياً: المرادية، مسجد السلطانة، متحف كوليسي، وغيره. بيد أن العثمانيين، بعد أن وضعوا نهاية لحكم صاروخان بك وأولاده، مسحوا آثارهم وكأنهم لم

يستحقوا البكوية، وتركوا قبورهم تتهاوي. لم يزل قبر صاروخان بك يحتفظ حتى اليوم باسم صاروخان بابا ويعتبر في الذاكرة الجمعية كولي وليس غازياً، وقد رمم مؤخراً. من فوره، يجذب الانتباه بحوائطه السميكة، بنائه القوي ونوافذه الصغيرة. يجعل النسوة يحلمن، معتقدات بشدة أن النظر إليه يحقق رغباتهن. حارس القبر رجل ذو دراية. إذا ألقيتم قطعة نقود في الصندوق المخصص للمحافظة على القبر، يكون لديكم الحق في كوب من الماء البارد مسكوب من دورق بلاستيكي، وبعض الحكايات المثالية عن صاروخان بابا. يحكي الحارس ما يعرفه عن قدوم صاروخان رفقة الرحالة التركمان تحت إمرة القرصان جاكا بك. يستعرض شجرة نسب كافة الأولياء القادمين إلى هنا، من سر الدين بابا إلى قردوغلو شيخ اسماعيل، من بابا يولاغلدي إلى عريك بابا. ولكي تواصلوا صلاتكم، يمنحكم كوباً ثانياً من الماء. إذا دسستم قطعة نقود أخرى في الصندوق، سوف ترون أبهة السلاطين العثمانيين الذين حكموا مانيسا، حتى أصبحوا من الأمراء الوارثين.

هي ذي البداية مع محمد الفاتح، الذي انتظر، بزيه، النصر الذي بشر به النبي. سوف تسقط القسطنطينية في يوم من الأيام. تحت أسوارها، نسمع قصف المدافع. القانوني (سليمان) يمسك كتاباً في يده. كان عجوزاً ووحيداً، ومرهقاً إلى حد ما. يبدو متأملاً، ربما لأنه أعدم كل ورثته المحتملين، باستثناء سليم (الثاني)، ابن زوجه الجميلة روكسلانا[7]، الذي يعتبر رجلاً ضخماً بوجه مبتهج. منحته الخمر وجنتين موردتين وعينين جاحتين. ثم جاء مراد الثالث ومحمد الثالث. هم أيضاً كانوا يعتمرون العمائم ولهم هيئة متعجرفة.

ذاب بكوات السنجق، سلاطين المستقبل، في البرونز، وظلوا مسمرين على مدخل المدينة.

بمغادرة مانيسا، رأيت ثانية تماثيلهم الفريدة. عليهم، وليس على المدينة، ينحني الجبل، بكل جماله المهيب. نعم، هم أيضاً، جاءوا إلى مانيسا ورحلوا مع الدراويش، صاروخان بك، مركز أفندي وحفصة سلطان، ابن بطوطة وطرزان، يوسف آتيلغان وخادمكم.

مانيسا، 2002

الهوامش

1- المقصود بدده: الجد - وهي إحدى مراتب الطائفة ، فيما أن بابا تشير إلى الأب الروحي، الروح (كما جاء في بعض المراجع) أو بالأحرى الشيخ. (المترجم)

2- رسم تدريجي باللون الرمادي ويكون عادة على الزجاج. (المترجم)

3- السيرة الذاتية للمؤلف، وهي تحمل نفس الاسم :

Nedim Gürsel, Au pays des poisons captives, Bleu autour, Paris, 2004 .

4- أبو العباس شهاب الدين أحمد بن فضل الله بن يحيى بن أحمد العمري ، مؤرخ وأديب دمشقي. ولد في دمشق سنة 700هـ وتلقى بها تعليمه وبرع في الكتابة وفنوانها والعلوم في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ذهب إلى القاهرة وتقلد رئاسة ديوان الإنشاء وكان له الفضل في الكثير من الدراسات. و قد عني العمري بدراسة الجغرافية السياسية، ودرس تواريخ الأمم وعجائبها، ودرس الفلك، وتجول في البلاد من الشام إلى الحجاز والأناضول وغيرها من بلاد الأرض. و قد تبوأ العمري منزلة عظيمة، ونال حظوة لدى الملك الناصر، حتى وافته المنية في القاهرة سنة 749هـ دون أن يبلغ الخمسين. من مؤلفاته : «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»، «فواضل السمر في فضائل آل عمر»، «يقظة الساهر»، وغيرها.

5- يسميها بن بطوطة، في رحلته «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» مغنيسية. (المترجم)

6- عن : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المطبعة الخيرية، القاهرة، 1322 هـ ، ص. 230. (المترجم)

7- كان سليمان مولعاً بالجارية هِـرنزَلتان، إحدى الجواري في حريمه من أصل روسي. وكانت تقارير الدبلوماسيين الغربيين في البلاط العثماني تطلق عليها «روسلازي» أو «روكسلانا» في إشارة لأصلها السلافي. وكان أبوها قساً أرثوذكسياً أوكرانياً، وكانت

من السبايا وارتقت في مراتب الحريم لتصبح محظية سليمان. ضارباً عرض الحائط بتقليد عثماني دام قرنين من الزمان، رقاها من جارية لتصبح زوجة شرعية للسلطان، لتثير استغراب المراقبين في القصر والمدينة. كما سمح كذلك لهرنزلتان أن تبقى معه في القصر طيلة عمرها، كاسراً تقليداً آخر، وهو أنه عندما يبلغ ورثة العرش الرشد، يُرسلوا مع أمهاتهم ليحكموا مقاطعات بعيدة في الامبراطورية، وألا يعدن إلا إذا اعتلى أولادهن العرش. (المترجم)

في اقتفاء أثر جيكلي بابا

كان اسم جيكلي بابا (والاسم يعني أب الآيائل) يثير فيَّ البهجة قبل أن أهتم بأعماله. بالأحرى لنقل مآثره. في الواقع، لا يجب المبالغة، إذ لم يقم بأية معجزات مثل رجال الله الآناضوليين، على سبيل المثال، الطهي في قدر مضطرم، يرتضي بأن يعرق إلى حد ما، أو هذا الآخر الذي يرحل إلى مكة ويعود منها في كل ليلة. لا يخفي وجهه تحت حجاب أخضر بثقبين يرى منهما ولم يمش خلف تابوته مثل الحاج الولي بكتاش. لم أر هنا نبعاً ينبجس حيث مشى (بالتأكيد، يجب التعامل مع كلمة «نبع»، هنا، بالمعنى القديم «للمخطوط العتيق»). ربما لأن أحداً لم يكتب أسطورته، مثلما جرى بامتياز مع أولياء خراسان العديدين، أمثال أحمد يسوي، حجم سلطان، حاج بكتاش، سري سالتوك، آخي افرن، عبد الله موسى، عثمان بابا، أو بالأحرى لدخول عدد كبير من الحيوانات البرية (الآيائل، بالنظر إلى ذلك) التي روضها، كما يشهد اسمه عليها. اختبر سلطته الحصرية على الآيائل وبحسب أقوال عاشق باشا زاده، «يتنزه معها في الجبال».

كان الاسم القديم لهذا الجبل «كشيش داغي» (جبل النساك). اشترك جيكلي بابا في غزو بورصة، ممتطياً ايلاً جميلاً ذا قرون خشبية. هجم على أسوار المدينة وهو يلوح بسيف طوله سبعة وسبعين كيلومتراً أو، حسب مصادر أخرى، بحجر من نفس الحجم يحملها على كتفه، ناثراً الموت في صفوف الأعداء. لم يأت إلى الآناضول تحت وسم السلام، تحت صورة الحمامة، كالحاج الولي بكتاش. مغادراً قرية خوي، بخراسان، ألفى نفسه، حسب مصطلحات الرحلة، في محيط بالم سلطان، وبالتالي رآه الناس يمتطي أيلاً، مع كل ما يحمله أمام أسوار بورصة. كان درويشاً محارباً وليس «مسالماً» كيونس (امره). تؤكد بعض المصادر أنه ـ ولم يكتف بالمشاركة في غزو المدينة ـ استولى بحد السيف على الدير ذي الثلاثمائة باب، والمسمى بالكنيسة الحمراء، بعد معركة طويلة في الساحة التي استراح في شجرة كستناء مجوفة تنتصب في ساحتها لبعض الوقت قبل أن يلقي بنفسه ثانية في حومة القتال. حسبما يفيد نص قديم لتواريخي علي عثمان، لم يجب على أي دعوة تلقاها من السلطان أورخان الغازي وطالب بأن يأتيه على قدميه ويلفظ هذه الكلمات: «أن تكون قمة هذا التل ساحة صومعة الدراويش! وهكذا حصل من السلطان على حق بناء تكية على كشيش داغي، من ناحية بحيرة انغول. من المستحيل عدم الكلام عن أشجار الصنار التي تنبت منذ ما يقرب من ستمائة وثمانين عاماً احتفاء بغزو بورصة، وقد ضمت إلى التاريخ باسم جيكلي بابا، الذي استدعاه الله إليه في سن الخامسة والسبعين.

ذات يوم، قبل أن يعرض أمام أورخان الغازي، نزع جيكلي بابا شجرة صنار (قرأتم جيداً «شجرة صنار»، ولكن في التقاليد التركمانية، يتعلق الأمر بشجرة حور) من الأرض، حملها على ظهره وغرسها في حدائق السراي.

اليوم، في بورصة، لا يوجد أي أثر لقصر أورخان، بيد أن شجرة صنار جيكلي بابا لم تزل منتصبة. إنها في حالة يرثى لها، بالتأكيد، الجذع مجوف، الأغصان يابسة، غير أنها تستحق المحافظة عليها، إذ أنها أقدم ذكرى في المدينة. على جذعها، علقت يافطة من الصفيح كتب عليها: عدم إلقاء القاذورات.

***

في بورصة، ذات صباح حيث كان الأخضر والأبيض، الحجر والماء، القباب المصنوعة من الرصاص والأزقة الملتوية في حالة تناغم، كجسد واحد، وبمعنى ما؛ ذات صباح هادئ حيث كما تقول أبيات تانبينار[1] الشهيرة: «سور يؤرخ إلى عصر أورخان/ وشجرة صنار عتيقة أيضاً متناغمة معه»، اتجهت إلى قرية بابا سلطان. صحبني موسى كوشكون، الذي فعل الكثير لهذه القرية. ظل يحدثني طوال المسافة عن شئونه وعن أعماله الخيرية. على سبيل المثال، قام بتهيئة دورات مياه للنساء اللائي يشاركن في الاحتفالات المنظمة في كل عام في ذكرى جيكلي بابا. على حوائط البناء الصغير المقام على الطريق، طلب كتابة : «الوسادة الناعمة للغاية/ هي بالطبع ضميرنا». من السئ أن نتكلم عن كون «ضمير» (Conscience) تكتب ب (C) أو بدونها. صديقنا الطيب موسى يحب جيكلي بابا ويحتفي بذكراه، غير أنه لا يترك أحداً آخر يرعى شئونه. بالمقابل، بما أنكم لن تتأخروا عن تحليله، ما يثير اهتمامي، هي أعمال جيكلي بابا. نترك خلفنا البنايات الغريبة التي تشوه بورصة، مآرب السيارات، المطاعم الشبيهة بمطاعم الضواحي التي تتصاعد منها رائحة الزيت المحروق، البصل والثوم، الأسوار المبنية من الطوب اللبن وكافة هذه

البنايات التي تعد من قبيل الآثار البشعة وقبل اينغول باثنى عشر كيلومتراً، تركنا الطريق العريضة.

ها نحن ذا بلغنا هذه القرية التي تعد على وجه الأرجح الأكبر (ألف نسمة تقريباً) وبلا شك الأجمل من كل قرى الاقليم. بينما تفرغ موسى كوشكون لأعماله، عكفت على تأمل الجمال الذي توزعه الطبيعة في هذه النواحي. ترتكن القمة، أعلى القرية، على المنحدر الشرقي لكشيش داغي، الذي يهيمن على السهل الذي يمتد عند سفحها. تنساب مياه باردة، هابطة من الجبل، في جداول من المرمر وتحمل الحياة إلى القرية. أجتاز بساتين أشجار التفاح والكرز. تتمايل أغصان أشجار البرقوق والخوخ، السفرجل، المشمش، الكستناء والجوز لكي تقول لنا : «لا تمضوا بدون أن تنظروا الينا». والفم ملتصق بالصنبور، أشرب جرعة كبيرة من نبع معلقة عليه : «ومن الماء جعلنا كل شيء حي» (الأنبياء، 30). وحيداً على الطريق التي تفضي إلى ضريح جيكلي بابا. الشمس تلمع ولا سحابة واحدة في السماء.

يتملكني الفضول في معرفة كيف وصلت أحجار الضريح إلى هنا! أتسلق منحدر الجبل بين النصب التذكارية التي ترجع بلا شك إلى العصر البيزنطي. في مدخل الضريح، تنتصب شجرة صنار عتيقة (تبلغ ستمائة وتسعة وثلاثين عاماً بالضبط)، كان جيكلي بابا يأوي اليها كي يصلي ويستقبل زواره. من الممكن أن نقرأ على العتبة : «تعال، أنت أيضاً، لا تنسى سلطاني». بالتأكيد، لم أنس جيكلي بابا، بيد أنني لم أقطع كل هذه المسافة الطويلة لكي أقرأ هذه الجملة، التي صدرت عن وزارة الشئون الدينية :

جيكلي بابا ولي تربى داخل الطائفة السنية وأدرك الكمال. ليس له أي علاقة مع الطوائف الضالة والغريبة عن ديننا.

يشير التاريخ المثبت في الأسفل إلى شهر فبراير 2000. أريد أن أفهم جيداً ماذا تريد بلدية القرية أو مقاطعة كاستل، التي تتبعها قرية بابا سلطان، ولماذا يريد هؤلاء الناس ضم هذا الجيكلي بابا حتمياً إلى الطائفة السنية، وهو، إذا كنا نعتقد بكتابة عاشق باشا زاده، كان مريداً من مريدي بابا الياس، المرتبط بطريقة سيد أبو الوفا. أعتقد أنهم يجهلون أن السلطان أورخان أرسل لجيكلي بابا حمل حمارين من العرق ومثلهما من النبيذ، تحت ذريعة «أنه يحب الشراب»، كمكافأة عن بسالته عند الاستيلاء على كيزيل كيليس. وددت أن أتبادل الحديث مع موسى كوشكون، غير أنه مكث في مقهى القرية، وسط أهل السنة. بينما كنت أتجه نحو الضريح أخذت طريقاً أخرى، طريقاً تفضي إلى «الطريقة»، إلى طريقة الدراويش.

داخل الضريح، قرون الأيل معلقة في السقف، أعلى تابوتين حجريين. في أحدهما رقد جيكلي بابا، وفي الآخر بالم سلطان، أحد أبناء جرميان. نعرف أن هذا الولي، الذي من الضروري عدم الخلط بينه وبين بالم سلطان آخر، مريد من مريدي حاج بكتاش، بدلاً من أن يخلف والده على العرش، فضل أن يكون من مريدي جيكلي بابا. هذا البالم سلطان، الذي «لم يرد أن يكون اسمه مكتوباً في الكتاب الذهبي للتاريخ»، يزيد قدره في قلبي. إنه من نفس معدن جيكلي بابا. في رقادهما الأخير، يرقد كل واحد منهما إلى جانب الآخر، رأساً برأس، بعيداً عن قلق الوجود، وهم وصخب الحاضر.

في هذه الأيام حيث الفائدة والمصلحة هما هدف الحياة الوحيد، أحييك،

جيكلي بابا، أنت من فررت من صحبة النافذين، أنت من تجاسرت على القول إلى أورخان الغازي: «أنت تمتلك كل الخيرات، أورخان، ونحن، لا يعنينا هذا في شيء»، أنت من تفوقت على تورغوت الغازي، تاركاً السلطة للسلطان ونذرت نفسك للعزلة والاعتكاف، أنت، الذي لم يزدر أبداً عَقْد الصداقات مع الأيائل، ولكن أيضاً مع الرهبان المسيحيين ! ألم يتبع أحد كبار شعرائنا[2]، الذي اعتقل في سجن بورصة، بمعنى من المعاني، نموذجك باختيار، وفاء لمثاليته، التعفن في سجن ثم العيش منفياً بعيداً عن لغته الأم؟

ألم يكتب، في زنزانته التي حبسوه بين جدرانها :

كوني سعيدة، يا مدينة آلب،

ها نحن قدمنا ورحلنا !

***

في كتابه «خمس مدن»، كتب أحمد حمدي تانبينار، الذي منح بورصة مكانة متميزة :

بالنسبة لجيكلي بابا، كان أحد رجال الله القادمين من خراسان، الذي دخل بقوة إلى أسطورة غزو بورصة وأدرج تأسيس الدولة العثمانية الجديدة في مولد العقيدة الجديدة. لم تكن هناك نجمة ترشده كما رعاة الغنم الذين ذهبوا إلى رؤية المسيح في مهده، وانما بواسطة إشارات الشيوخ، لكي يلاقيهم. البعض هاجر فقط من بلده، ولكن هناك آخرون تخلوا عن التاج والصولجان اللذين كانا مقدرين لهما.

قال تانبينار الحقيقة. هؤلاء الرجال، القادمون من خراسان في أثر قبائل التركمان في هجراتهم نحو الغرب، احتلوا مكانة متميزة. نذكر من ضمنهم،

زمن بكوات الآناضول، الدراويش المحاربين الذين شاركوا في الغزوات التي تدور رحاها على الحدود، ولكن أيضاً الدراويش الذين تقلدوا سيوفاً خشبية أو تحولوا إلى حمامات. إذا اعتقدنا في كتابة عاشق باشا زاده، نجد أنهم شاركوا في المعارك ممتطين آيائلهم. غير أنه بعد غزو بورصة، في غضون تأسيس الدولة العثمانية، لعبوا دور «المستعمرين». لا طائل من ذكر أن جيكلي بابا، كما أكد نشري، الذي رجع إلى المصادر، قال لأورخان غازي: «أيها الخان، وزع الله الأراضي على من يحسن إدارتها، ولكنكم، أنتم، تستحقون امتلاكها». في الواقع، نعرف أنه أنشأ، في اقليم اينغول، قرب القرية التي تسمى اليوم سلطان بابا، على الأراضي الخالية، زاوية تجمع يمارس الدراويش فيها الفلاحة والتدجين، يغرسون أشجار العنب، يزرعون البطيخ والشمام والبقوليات. سهّلت هذه الأنشطة من تحضر واستقرار القبائل الرحالة. مشاركين في الثقل السياسي للتكايا، تمكنوا من لعب دور مميز في المجتمع. كما ذكر برقان، أن تكية جيكلي بابا، حيث يرجع أصلها إلى يسوي، لا تشبه بأي حال من الأحوال التكايا التي انغلقت على نفسها في مرحلة تاريخية أخرى. إذا كان من الضروري إجراء مقارنة (وهذا أمر لازم، حسب أقوال كاتب هذه السطور، الذي يطالب بانضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبي وتبني مجتمعنا الاصلاحات الآتاتوركية)، من الممكن أن نتكلم عن عالمين مختلفين أشد الاختلاف. ليس هناك أي شبه، من ناحية أولى، بين الأتراك التأمليين، الذين لعبوا دوراً لا يقل أهمية عن دور الأتراك المحاربين في تأسيس الدولة العثمانية وأسلمة الآناضول وروملي، حينما انغرست الثقافة التركية في هذين الاقليمين، وبين، من ناحية أخرى، التكايا التي تكفلت الجمهورية بها منذ انهيار الامبراطورية، قبل أن

تلغيها. وهذه التكايا هي تكايا الدراويش المتمردين الذين حركوا أحداث مينمن[3].

على طريق العودة، فكرت في أن الأساطير المنتشرة لدى الشعب عن جيكلي بابا ـ هذا الرجل الذي يتغذى على لبن ظبية ولم يكتف بترويض الآيائل، وانتفع بها كمطية وأعطاها، عند الحاجة، ملحاً تلعقه ـ لها علاقة مع المعتقدات التركية ما قبل الإسلام. بالنسبة لشمالي آسيا الوسطى، كما تروي الأساطير التركية القديمة، كان الايل اله بحر غوك ترك، الأتراك الأصليين، وأسلاف جنكيز خان الذي، حسب التاريخ السري للمغول، اجتاز البحر. هذه الأساطير القديمة تتحدث أيضاً عن ظباء تجذب الصيادين إلى اقتفاء آثرها. في الآناضول، سمعت كثيراً حكايات عن الأيل الأبيض، تذكر المصائب التي تلاحق من يصطاد أيلاً (وبالأخص ظبية لها صغار). يحكى أن من يطاردون أيلاً يقعون في خيران وتتهشم عظامهم. دون أن ننسى الأغنية: «ذهبتُ أصطاد أيلاً/ جذبني في أثره».

لست شجاعاً مثل ابن بك علاعية الذي رمى سهماً على عبد الله موسى المتحول إلى أيل. كنت حائراً. تملكني الخوف من أن ينهار جبل كشيش علي، أو أن يطير عصفور أو تنبجس ظبية أمام السيارة. تُظلم الأشجار تدريجياً، يهبط نور غامض من الأعالي ويسقط على الطريق الذي يضاء. على المقعد الخلفي، كان موسى كوشكون نائماً وأنا أمسك المقود. بالتأكيد، كنت أمتلك رخصة قيادة، ولكن، بما أنني لم أقد منذ سنوات، لم أكن مرتاحاً. كنت أفكر في جيكلي بابا وهو يقول لأورخان الغازي: «لا يعنينا هذا الأمر في شيء». واذا أخطأت في الانعطاف، فقدت التحكم في الاتجاه وسقطت السيارة في الخور!

أو إذا صدمت شجرة أو أيلاً ذا قرون خشبية! ومع ذلك، وقد انتشيت بصورة غامضة من السرعة، ضغطت على بدال السرعة. هل كنت تحت تأثير عباد الله الآناضوليين، تحت تأثير هؤلاء رجال الله القادمين، من جميع الجهات، الذين ارتدوا جلود الحيوانات، وتقلدوا الفؤوس، وكسبوا القلوب وأسقطوا الأسوار القوية؟ كانت الطريق ضيقة، ولكن مسفلتة. كنت أقود بسرعة ورأس موسى كوشكون، مع كل انعطافة، تهتز يمنة ويسرة كرأس درويش في ذكره. أعتقدت أنني سمعت بير سلطان عبد الله، ذا نظرة الأسد وصوت الكركي، يرسل بلغة علي (العربية)، من قرية باناز، صيحات تجتاز السهل، وتتردد عند سفح الجبال. قال: «أخبرتك الآيائل عني/ سوف تضمد جرحي مع الشهداء»، ولكن من هم هؤلاء الشهداء؟ هل هو علي؟ أو بالأحرى الحسن والحسين؟ أو ربما بير سلطان عبد الله نفسه، أو هؤلاء الأوفياء، من منصور الحلاج إلى نسيمي(4)، من أوغلان شيخ إلى بدر الدين الزاهد، ربما من تقاسموا معاركهم معه. بالتأكيد، لم يقل: «اترك من يريد، وأنا لن أتخلى عن أحد في رحلتي!» جاعلاً أوتار سازه تنوح، قال: «أمضيت أربعين عاما مع الآيائل/ صديقي، أتقاسم ضيقك». بهذا النواح وهذه الصيحات، عبر كافة الأولياء والدراويش عن ما ذكره العديدون مثل يونس امره عن «فناء العشق». قبيلة قادمة من خراسان، وصلت على مراحل إلى الآناضول، توقفت في السهل، ثم في اقطاعيات البكوات، على ضفاف جداول المياه عند سفح الجبل وأخيراً على ساحل البحر. كان جيكلي بابا واحداً من هؤلاء الناس. «لا تخف، همهم في أذني، هذه الطريق تفضي إلى بورصة، ستقودك بالقرب

من اكمكشي كوجا وأمير سلطان. أنت على طريق الطريقة، وليس على طريق الشريعة !».

ثم هبط الليل. أنرت المصابيح. وقد أدركت الطريق السيارة، أبطأت من سرعتي تاركاً خلفي جيكلي بابا وآيائله. في موجة من النور بلغنا بورصة. بورصة المقدسة، إقامة الدراويش.

بورصة، 2004

الهوامش

1- أحمد حمدي تانبينار (1902-1962)، روائي وباحث. تستدعي روايته «مؤسسة المستودعات منضبطة كالساعة» و«خمس مدن» المرور من العالم العثماني إلى تركيا الحديثة.

2- اشارة إلى ناظم حكمت. (المترجم)

3- جرت هذه الأحداث غير بعيدة عن أزمير في عام 1930، بقيادة الشيخ محمد ضد الكمالية التي سرعان ما عمت جزءاً كبيراً من البلاد حينما استولى الثائرون على قونية وبورصة. بيد أنها سرعان ما انتهت مع تدخل قوات الجيش وسيطرتها على البلاد، والقبض على جانب كبير من الثائرين. (المترجم)

4- يعتبر الشاعر عماد الدين نسيمي (1370 -1417) المولود بمنطقة ـ نسيم ـ بضواحي بغداد، المؤسس الحقيقي للشعر التركماني ومن أكبر الشعراء في تاريخ أدب الشعوب الناطقة بالتركية، إلى جانب كونه شخصية بارزة في الفكر الإسلامي، وخاصة في الدول الناطقة بالتركية. ولا يزال نسيمي إلى يومنا هذا يحظى بمكانة محترمة بين البكتاشيين والعلويين في تركيا حيث يترنمون بقصائده في طقوسهم الخاصة التي ترتل فيها القصائد وتغنى على آلة الساز. (المترجم)

«غاب النور عن وجهك، تعال، سأقودك إلى أمير سلطان»، قال. كانت الساعة تجاوزت الثانية عشر ليلاً. وكان اقترب مني في عتمة المدينة القديمة ببورصة. في بادئ الأمر طلب مني بعض المال، ثم شيئاً من المخدرات، وعندما لم يحصل على هذا أو ذاك، تطلع إليّ للحظة ومط شفتيه اشمئزازاً كأنه ينتظر شيئاً مني. لا يستطيع الوقوف ثابتاً. كأنه شرب كثيراً. هل كان تحت تأثير الكحول أو المخدرات؟ «نوري في دواخلي، يا صغيري، أجابني، أنا ممتلئ بالحب. لا تثق في نور الوجوه، إنه خداع». هذه الكلمات ليست كلماتي، وانها مستلة من قصة لسعيد فايق[1]، الذي درس في ثانوية بورصة. بيد أن الشاب لم يجبني. «حقاً» ؟، كان مندهشاً، كما في قصة «عاشق اليهودية»، ولم أحك له أنني كنت عاشقاً يائساً. مثل المعلم سعيد فايق، أعرف جيداً أنه من الصعب الكشف عن جانب مثل السقوط، ولكن عن التحية في الارتقاء. والشاب، نفسه، واحد من الذين ينفر الارتقاء منهم.

أمضيت يومي أتسكع في الضواحي غير الخضراء كلياً لبورصة الخضراء،

متوقفاً أمام قبور الأولياء، بادئا بقبر سومونغو بابا («أب أرغفة الخبز»)، في غرف النساك الضيقة التي تطل على الشوارع المقفرة، وراقداً في ظل أشجار الحور العتيقة. هل وجدت السلام أو الصفاء؟ لا أعتقد. بالنسبة لي، كلمة «صفاء» لا تعني شيئاً. في حياتي، لا مكان له. يجده البعض في الخبز الذي يخبزه سومونجو بابا في أفران مطلية بالصلصال. خبز ساخن، ناعم كما القطن، وفي لقاء الدراويش ذوي القلوب الكبيرة الذين اكتفوا «بلقمة ومزقة قماش»، بينما راح آخرون يبحثون عنه في الشراب. أنا طفت كثيراً، ولكنني لم أشمئز من الحياة. أرى إلى أن الحياة جميلة، ذوقي وجلدي يطلبان المزيد باستمرار، وإنْ كان سوط اللذة يتغير شكله. أريد دوماً المزيد، دوماً أكثر، وهذا سوف يدوم حتى ... لا أحب هذه الكلمة، ولكن نعم، هذا سوف يدوم حتى الموت. أو لنقل بالأحرى حتى الشبع، كأنه من الممكن أن أشبع.

لم يأت سومونغو بابا إلى العالم كي يشبع، وانما لكي يطعم الآخرين. كان يريد أن يكون هذا العالم، عالم الشدائد، هذه الحياة القصيرة، مرسى السلام، ساحة هادئة في ظلال أشجار الحور العتيقة. اسمه الحقيقي شيخ حميد ولي، وقبل أن يصبح «خبّازاً»، غادر قيصرية، بلد مولده، كي يتجه إلى منحدرات آرغييس، ثم دمشق وتبريز. وانتهى إلى القدوم إلى أردبيل حيث لاقى كوجا علاء الدين، حفيد الشيخ صفي الدين اسحق.هناك، كان بين يدين طيبتين، تم عجنه بعناية، كما العجينة، وتطهيره حتى أصبح مريداً صالحاً. حينما تم تكوينه، وأخذ الاذن من شيخه، جاب الطرق واجتاز الآناضول من الشرق إلى الغرب. ولما بلغ بورصة واستقر في الحي الذي يحمل اسمه اليوم، دون أن يكشف عن شخصيته، بدأ يوزع هذا الخبز الشهي على الفقراء والذين

أطلقو عليه اكمكشي كوجا (رجل الخبز) وسومونغو بابا. لم يقم بالتدريس في المدرسة مثل بعض الورعين المعروفين بصورة سيئة، وانما ظل بعيداً عن السراي والرجال النافذين وأمضى وقته في الصلاة والتأمل. ظل مستتراً، لا يلتمس أية مساعدة من النافذين و - بينما كان يعد معلماً عظيماً وعلاَّمة حقيقياً - اكتفى بتوزيع خبزه على الناس. حتى جاء يوم طلب منه أمير سلطان أن يلقي خطبة في افتتاح أولو جامي (المسجد الكبير). على مدى الحفل، الذي دار في حضور بايزيد الصاعقة، تحت الأنظار المذهولة للحشد المجتمع، حلل سومونجو سبعة أسرار في الفاتحة، ثم أدى صلاته، وتوجه للمرة الأخيرة إلى الله تحت شجرة الحور الكبيرة المسماة «شجرة حور الصلاة»، وقد بان سره. غادر بورصة ولم يرجع إليها قط. تابع حياته كزاهد في السهوب، في تكية قريبة من آق سراي. درويش عجوز ذو لحية بيضاء. بعد ارتحالاته، عاش هناك حتى سن التسعين.

دوماً أحياء، لا نموت
لا نبقى في العتمة
لا نتعفن في الأرض
جاهلين الليالي والنهارات

قالها في رباعية، واعظاً الفانين من التمتع بثمرات الأرض قبل أن يتعفنوا في داخلها.

بمعنى ما جاءني أن أخلط بين النهار والليل، وانما لأسباب أخرى. كنت إلى حد ما أشبه طالب الثانوي في إحدى قصص سعيد فايق، الذي لم يستطع

أن يهبط من أعالي ستباشي. تسلقت منحدرات أولوباغ، ولكنه سمح لي برؤية المشهد الذي يمتد أسفل قدمي بصورة جيدة. إذا توجهت ببصري ناحيته، لن أراه، واذا رأيته، سوف أشعر أنني عنصر من عناصر المشهد وسوف أسقط في الفراغ.

لم أكف عن التفكير فيما قاله سعيد فايق، في (قصته) «قصة كهذه»، بصدد ما جرى حينما كان طالباً بليسيه بورصة. «لا تفعل هكذا يا بني. من السهل الهبوط. أي شخص سيتكفل بك. ولكن بعد ذاك، لن تجد مخرجاً». هذه الجملة ترن كصافرة إنذار لدى من يضلون، من يلجأون إلى الشراب أو المخدرات ويبحثون في الجنة المصطنعة عن وسيلة للهرب من الواقع.

في هذه الليلة، قبل أن أقابل هذا الشاب الذي سألني ان كان معي ثقاب ثم استجدى مني بعض المال والمخدرات، ولجت الفندق بعد سهرة أمضيتها في الشراب، غير أنني لم أستطع النوم، ولذا خرجت ثانية أتسكع في الشوارع الأثرية الملتوية لبورصة العتيقة. أليست الحياة شارعاً طويلاً مائلاً للانحدار؟ شارع يرتفع دوماً. نعم، كما الحب، الحياة متاهة من الشوارع المنحدرة نضيع فيها. يتبدى لي أنني لم أملك شيئاً لكي أمنحه إلى هذا الشاب. بالتأكيد، كان معي ثقاب، غير أنه لي. بهذا الثقاب لن أستطيع أن أشعل سيجارته، واذا استطعت، لن يتحصل على أية نشوة. المخدر الوحيد الذي أعرفه، ويحقق فضولي وأبحث عنه كما الحب بلا أمل، المخدر الذي أثار نشوتي هو الأولياء. الأحجية التي بررها الله، كما يقال في المخطوطات القديمة ذات الصفحات التي استلهمها الزمن. قرأت في المكتبات، جالساً في ركن منها. تصفحت بشراهة الكتب التي تبدأ بهذه الكلمات: «يرجو الشيخ من الله أن يحفظ سره»، كتيبات، سير، حيث

الصفحات المغبرة تكشف بما تبقى منها عن مفاخر رجال الله، وأنسى أين أنا، حتى أنني أنسى الوقت نفسه. الزمن والفضاء اللذان يأتيان متزامنين، كنشوة عاشقة موزعة. في هذا المجال، على أي حال، لم تثبط بورصة همتي. طوال اليوم زرت أضرحة الأولياء، الأماكن المنعزلة التي انسابت حياة النساك في جوف أشجار الحور العملاقة المنتصبة في أرجائها، وكنت أشعر أنني على علاقة بهم. تأخر الليل عن الهبوط، النهار طويل، الحياة طويلة، الطريق طويلة. فقط اللذة قصيرة، تحترق بومضة، كنار القش، وتنطفئ سريعاً.

لم يكن هذا سر سومونغو بابا، من اللازم أن أعترف، الذي قادني إلى أمير سلطان، وليس أكثر من قطتين جائلتين قرب الفرن لا تستعملان مجرفة الخباز. إنه الشاب الذي لقيته في الشارع، والذي أصبح فيما بعد صديقي، الذي صحبني إليه. بالأحرى، كنت أنا من صحبه إليه. كما قلت، لا يستطع الوقوف ثابتاً. بحثاً عن سيارة أجرة، هبط معي نحو مرادية. تعلق بذراعي. في البداية، أزعجتني إلى حد ما هذه التلقائية. غير أنني اعتدت على هذه المشية المترنحة وشعرت بمودة نحوه. بينما ننتظر سيارة الأجرة، متأبطين، كانت أنوار المدينة تلمع تحت أقدامنا. أنوار البيوت مطفأة، والناس نائمون. بيد أنني تمكنت من رؤية مأذنتي المسجد الكبير منيرتين، القباب المتكورة في مكانها بين أسوار كوزاخان الحجرية، ومن بعيد، ينبثق (ضريح) أمير سلطان قبالة التربة الخضراء [2] كمياه مائلة إلى الزرقة تجري بين أشجار السرو.

***

في هذه الساعة من الليل، كان الضريح مغلقاً. والمسجد أيضاً. هبطنا

الدرج ومارين بين عمودين، ولجنا الساحة الرحبة. جلست قرب النبع على كتل من المرمر الذي يحيط بالحوض. لا نتبادل الكلام. غطست يدي في المياه وشعرت ببرودة لطيفة، فرح لا يوصف، راحة عذبة، تملكتني الرغبة في النوم. في المقبرة، أشجار السرو تندي، المآذن الحجرية المشذبة لا تنغرز في جلدي، لا تجرحني. وهكذا نسيت وجود الشاب. الحب الشهواني والمسخ الذي يسكنني ويلتمس بشراهة وبدون انقطاع المتع الجديدة. في الساحة المحاطة بالقاعات المفتوحة، انتظرت حفل أشجار جوديه. في مطلع النهار، حينما تتفتح أزهار هذه الأشجار، سيتوافد دراويش أمير سلطان نحوها. مرتدين ملابس من الصوف، مع قشرة الجوز التي تتدلى من أعناقهم، ينتشرون في الساحة كحبات المسبحة ويجثون. قبل أن يشرعوا في ذكر أسماء الله، ربما سينفخون في ناياتهم، ويصطفون في دائرة، يصيحون أو يسبّحون. ربما انتهى بعضهم من قضاء الأربعين يوماً من أيام الاعتكاف. آخرون، مثل يونس امره، يذكرون ليلاً ونهاراً أفضال الله. اعتقدت أنني سأسمع هذه الأبيات الشهيرة ليونس عن بورصة، التي تحتفي بقدوم الربيع وفرحة الدراويش بيقظة الطبيعة :

دراويش أمير سلكان

يمدحون الله

إنهم عصافير البهجة

في ضريح أمير سلطان

غير أن الدراويش لم يكونوا، هم فقط، من يترددون على ضريح أمير سلطان. نهارات السوق، جمع قادم من القرى المجاورة يملأ الشوارع، ينتشر

على المنحدرات ويجتاح المقبرة. رهبان مسيحيون هبطوا من أديرة أولوداغ، خارجين من مغاراتهم أو من أشجارهم الجوفاء. الأرض التي طفقت تلتهب، المياه المتدفقة، الأشجار الزاهية والأزهار ذات الألوان العديدة، الأزرق، الأحمر، الوردي، أشجار جوديه، التي تزهر قبل الأوراق، كانت في حالة من النشوة. ظهر أمير سلطان. كان يعتمر عمامة خضراء من اثنى عشر لفة، يرتدي معطفاً أسود طويلاً ويحمل عصا من خشب الورد. جبته من صوف الآنغورا، الناعم واللامع، جديرة بمكانته. الزنار الذي تقلده في ذكرى قمبر، الوفي لعلي، يتدلى من وسطه، حجر الخضوع المعلق في رقبته يتأرجح مع كل خطوة . يعبّر عن معاناة نسيمي، منصور الحلاج، اللذين لم يرجعا عن طريقهما الحقيقي، وعن رحلة كافة الصوفيين المنزوين في صوامع الذين عقدوا أجسادهم في حبهم لله الواحد. يرى على وجهه الجميل النور الذي يتلألأ على ذرية النبي وفي نظرته سلام من أدركوا هدفهم. إذ إنه، دون موافقة السلطان، تزوج خوندي خاتون وأصبح صهر بايزيد. أنه من منح حماه لقب «الصاعقة» وإنه من قلده السيف قبل رحيله إلى الريف. وقد رآه البعض أيضاً، رفقة دراويشه، تحت أسوار القسطنطينية، مسلحاً بسيف خشبي. بفضل معجزاته، نجح بايزيد من دحر الجيوش الصليبية في نيغبولو. الآن، واثق من نفسه، ويعرف مدى حب السلطان له وتمتعه بتقديره السامي، غير أنه ظل بعيداً عن مكائد السراي وسباق السلطة. قبل البدء في ذكر أسماء الله لأجل حفل أشجار جوديه، يمشي مائة خطوة في ساحة الضريح. يرى بخارى حيث ولد وكبر، النزل البسيطة في المدينة التي أقام فيها لما زار قبر النبي، الأركان التي تكور فيها كي ينام حينما احتاج إلى المال، الشوارع المغبرة اللا نهائية، الأشجار المنزوية

وسط السهوب، الشمس المتأججة في سماء الصحراء، النجوم المعلقة أعلى الفراغ في الليالي الباردة. حتى اللحظة التي بلغ فيها بورصة، انزوى كي يحيا في بينارباشي. كان دوماً معتزاً بنفسه، دون مساعدة ولا نصيحة.

وددت أن أقول له، بكلمات يونس: «أمير سلطان، يا من ارتديت الأخضر، السلام عليك!». ظلت يدي في مياه النبع حيث رحت أشعر بالطلاوة تنتشر في أوردتي. كنت كمن تطهر من الكحول الذي احتسيته بكميات متلاحقة مع الوجبة. كانت روحي متفتحة بحيث، إضافة إلى تخيل حفل أشجار جوديه، تصورت الاحتفالات الربيعية التي كانت تدور عصر أمير سلطان. وفجأة فهمت لماذا كان رفيقي عند المنبع أراد أن يقودني إلى أمير سلطان. بالتأكيد، فكر، هو أيضاً، في معجزة حققها الولي الذي ارتدى الأخضر في روح الهلال الأخضر.

وعد بايزيد «الصاعقة» أن يبني عشرين مسجداً إذا انتصر في معركة نيغبولو. في غد يوم انتصاره، وبالعودة إلى بورصة، بدأ العمل. اعترض أمير سلطان على هذا القرار. اقترح على سلطانه أن يبني مسجداً واحداً ذا عشرين قبة بدلاً من قبة واحدة. وهكذا شيد بايزيد أولو غامي، المسجد الكبير. وحينما انتهى العمل في البناء، سأل السلطان أمير سلطان، إنْ كان هناك شيء ما ناقص، أجابه:

ـ كل شيء جميل وكل شيء في موضعه، يا سيدي. لا يتبقى سوى النزل.

تخيلوا ذهول السلطان. ومع ذلك، لم يكن فاقد الحس قبالة النقد الذي وجهه إلى صهره.

ـ ماذا تريد أن تقول؟ لسنا في بيت لحم ! ما فائدة نزل في بيت الله؟

ـ إنه نتاج خلق الله. إنهم عمالك، حرفيوك ومعماريوك الذين أنشأوا هذا المسجد الكبير. مثلما خلقك الله، جسدك نتاج يديه. إذا لم تكن تخشى، منكباً على الشراب، أن تحول هذا البيت لحم، والذي هو جسدك، إلى نزل، لماذا أنت خائف من إدخال الشراب إلى هذا المسجد ؟

بعد هذه الموعظة، كما قيل، تاب بايزيد ولم يقترب أبداً من الشراب. لا أعرف إنْ كانت هذه الحكاية صحيحة. أفسر، بطريقتي، المصادر القديمة.

بورصة، 2006

الهوامش

1- سعيد فايق (1906-1954)، قاص وشاعر تركي شهير. (المترجم) .

2- التربة الخضراء، ضريح السلطان العثماني محمد الأول في بورصة، وسميت كذلك لأنها مغطاة بقطع الخزف الخضراء.

في اليوم التالي من وصولي قونية، كان من المتوقع حدوث خسوف القمر ـ كان الأول واضحاً في كل مكان منذ ألفي عام، حسب الصحف. وسيظهر ظل كوكبنا مرتمياً على القمر في السماء الصافية والشفافة لسهولنا. بلا أي زخرف في وضوح القمر، ولا أصغر سحابة، ولا أدنى نجمة، كانت السماء نقية، كثيفة بصورة مذهلة.

فجأة، بدأ القمر يُعتم. حينئذٍ، سمعت، من بعيد، فرقعات، قعقعات الصفائح والأواني، صافرات السيارات وصيحات النساء. هكذا، في قونية، كما في كافة مدن الآناضول، تمت تحية الخسوف بالصخب. من اللازم القول أن قونية إحدى أكبر المدن المزدهرة في تركيا. لا يرى المرء فيها الا الشوارع المغطاة بالإسفلت، المناطق الصناعية، البنايات الجماعية، وحتى ناطحات السماء. يرفع المرور المنظم رأس البلدية، وقد أهدت بلدية كولونيا المدينة مركبات ترام من ثلاثة دواوين. هذه المركبات تربط جبل علاء الدين بالضواحي، غير أن المدينة لا تمتلك مطاراً. سأكذب إذا قلت أنني نسيت أن أتكلم عن المدرج

الذي ينبسط في وضوح القمر حينما هبطت طائرة شركتنا الوطنية التي حملتنا على أرض القاعدة العسكرية، مرآب الطائرات وحاملو الحقائب يهرولون وسط الحراس المدججين بالسلاح. وبعد ذلك، في اللحظة التي اتجهنا فيها إلى باصات البلدية التي تنتظرنا كي تحملنا إلى المدينة، خُسف القمر. كيف أنسى قطع الخزف الخضراء للقباب والامتداد المخروطي للمنارات التي تنتصب نحو السماء؟ لنستشهد بأكبر متصوفينا وأكبر شعرائنا المتأججين، جلال الدين الرومي، بقول آخر مولانا :

شمس، كالهلال والبدر،

تعالي، بلا جناحين ولا ذراعين،

وعاودي مسيرتك الكونية.

لم أنم طوال الليل. خرجت من الفندق، المبني بالضبط قبالة ضريح مولانا، كي أتسكع في الشوارع الخالية. مررت أمام المسجد وارتكنت على باب ضريح الشيخ المقام حسبما أمر سليم الثاني، ابن القانوني، سليمان العظيم، بينما كان وريثاً للعرش. (في حلقة تلفازية، أطلقت على هذا السلطان «سليم السكير»، مما أثار حفيظة بعض المشاهدين، بيد أنه من الواجب عدم نسيان أن سليم، المصور على منمنة وفي يده كأسا من الخمر، مات في الحمام، بسبب نزيف مخي، في ليلة سكر!). تخلص القمر من ظل كوكبنا ولمع من جديد. من النافذة ذات القضبان الحديدية المفتوحة في الحائط الحجري، رأيت الساحة. مياه الحوض تسيل في جداول الينابيع المرمرية. في الماضي، كانت هذه المياه تنبجس من أفواه أسود حجرية وكانوا يقيمون احتفالاتهم الليلية حول هذا الحوض.

أحاول أن أصور الدراويش يدخلون، الواحد بعد الآخر، إلى الساحة كي يرقصون رقصتهم الطقسية، السيما[1]. بقلنسواتهم الكستنائية اللون، وأجسادهم المثنية في معاطف بيضاء، كأنهم قادمين من عالم آخر. كان الشيخ، ذو القلنسوة التي لف عمامة بيضاء عليها، يمشي خلف الآخرين. أخذ الراقصون أماكنهم في ساحة الصومعة. الصمت يلف المكان. لا يسمع أحد حتى همهمة النجوم التي تذوب في وضوح القمر. تربع الشيخ، باسطاً جلد خروف تحت القباب الرصاصية، والدراويش يحيطونه وهم يتلون الأدعية. وهكذا بدأ لحن مرتجل على الناي الذي يثير رجفة الليل. النغم، العتيق جداً، القادم من بعيد، ينسال عبر السنوات والقرون ويغسلكم، يطهركم كما المياه النقية.

رددت في نفسي البيتين الأولين من المثنوي، البيتين الأولين من ستة وثلاثين التي نسخها مولانا وأعطاها لحسام الدين جلبي[2] ذات ليلة، ربما كان قمرها ينير كما هذه الليلة هذه الساحة الحجرية والمياه تملأ الجداول المرمرية :

اسمع شكوى الناي الطويلة

دوماً ينتحب على الهجران.

انْـتُزِع الناي من قصب، ولهذا ينوح، مثلما ينوح إنسان انْـتُزِع من رحمة الله. يحترقان رغبة ويؤوبان إلى جذورهما، يلاقيانها، يذوبان فيها، يُنسخان فيها، يتلاشيان في الذات الحقيقية.

من، إذاً، فصل روحك عن الحقيقة ؟

تنتظر لحظة الاتحاد.

مثل موتى بعثوا من نغم الناي، خلع الدراويش معاطفهم وأنشأوا يرقصون. ملابسهم ذات الأكمام الطويلة بلا رقبة ومقورة على الصدر وقمصانهم الفضفاضة تشبه الكفن. يدورون بسرعة على أنغام الناي، الطبلة والربابة، ويتفتحون في ساحة الضريح كزهور النيلوفر البيضاء. يتوسط الشيخ دائرتهم، على جلد الخروف، مستغرقاً في حلم بعيد، غاطساً في أعماق «عالم الإدراك». كأنه غادر هذا العالم، وانمحى عن الواقع. مسافراً في رحلة تأملية طويلة، يطير بين الملائكة. حُجُب عينيه يتساقط الواحد منها بعد الآخر. الدراويش يدورون حول أنفسهم كما الكواكب حول الشمس. حسب قائد الرقصة، الرؤوس مائلة إلى ناحية، الأيدي اليسرى نحو الأرض، الأيدي اليمنى نحو السماء، يذكرون، في همسة، أحد أسماء الله في كل مرة يضربون الأرض بكعوبهم. أسماء الله لا تعد ولا تحصى، أكثر من عدد نجوم السماء ونمل الأرض. الحياة قصيرة للغاية حتى نتعلمها، نحفظها ونعلنها. ولكن ليس الدراويش من يدورون هكذا مثل الدوامات تحت قباب الضريح، لا! إنهم مؤسسو طائفة المولوية، سلطان ولد، باعث الرقصة الطقسية، افلاقي[3]، مؤلف الحكايات الأسطورية والكتابات العظيمة في مديح الله، حسام الدين جلبي، الذي دوّن المثنوي من فم مولانا. منتزعين عن الأرض، عراة من معاطفهم السوداء، يلاقون الالهي. يدورون، بلا دنس، نشوانين، غارقين في الجذب. في باريس، رأيت دراويش يدورون على خشبة أصغر من هذه الساحة، وفي اسطنبول، تحت ثريات من البلور في المولوية، بحي غالاتا. ولكن شيئاً آخر هو أن أراهم يرقصون في قونية، قرب ضريح مولانا الذي يغمره نور القمر. إذ أن أول رقصة طقسية حققها مولانا نفسه هنا، ليس

تحت هذه القبة، وانما إلى البعيد نوعاً ما، في صمت سوق الصاغة، «الأعمى والأبكم» في العتمة.

في ذاك الوقت، لم يكن بازار قونية يشبه، كما اليوم، سوق السلع القديمة. ولا هذه البنايات الأسمنتية، التي لا يضاهيها شيء في البشاعة، موجودة، وكذا هذه الحوانيت التي تبيع الأبسطة للسائحين. والبضاعة المزورة غير مختلطة بالتجارة الكبيرة. حتى أن آذان الصلاة لم يكن يتعإلى من أعلى محال مسجد العزيزية المزخرفة بصورة ثقيلة، ولكن من أعلى المآذن القصيرة لمسجد صانعي الحبال حيث الجدران اللبنية ترتفع على قوائم أفيال واقفة على ظهور محال السوق حيث يهيمن النظام التعاوني وأخلاق الفتوات. كل طائفة مهنية تجتمع في فضائها الرسمي وتتمتع بالتقدير العام. طائفة الخياطين ترجع إلى النبي إدريس، طائفة الدباغين إلى آخي افرن، طائفة الخبازين إلى عمر البربري، طائفة الصياغ إلى ناصر بن عبد الله، طائفة السقائين إلى سلمان الكوفي، وكانوا يتمنطقون بزنار صوفي. لم تكن الشوارع، كما اليوم، مزدحمة بالجموع حيث يختلط السكان بالسائحين، خلال الصيف. في عاصمة السلاجقة، كان المسلمون والمسيحيون، اليهود والوثنيون يعيشون في وئام، وكان الجورجيون والقرامنليون، العرب والتتار، التركمان واليونانيون، يتسوقون من نفس الحوانيت ويترددون على نفس النُزل.

في ذاك الوقت حيث كان البازار يحمل اسمه، كان مولانا يخرج في المساء كي يفصح عن حزنه. يداه الطاهرتان تجريان بشرود على كمي جبته، يفكر في شمس تبريزي، صديق روحه الراحل، ويبذل قصارى جهده في رد سلام التجار الواقفين أمام حوانيتهم. ينحني المعلمون والأصدقاء والصبية باحترام،

وبأدب طائفتهم، أمام هذا العالم الكبير، وكانوا يتشاجرون على شرف دعوة هذا العَلاَّمة الذي يجمع بين الشيخ والمعلّم إلى حوانيتهم. غير أن الشيخ الولي كان حزيناً، يمشي بلا تبصر ولا يحلم سوى برؤية شمس تبريزي، هذا الولي الذي قلب حياته رأساً على عقب، هذا الرجل السامي الذي، منذ اللقاء الأول، غَطَّسه في الجذب. بعد قرون، غنّى منشد ضرير، من نفس الروح، هذه الحالة الروحية، هذا السلوك الساهي :

على طريق طويلة وضيقة
أمشي ليلاً ونهاراً
أجهل حالتي
وأمشي ليلاً ونهاراً.

على حين غرة، توقف مولانا وأصاخ سمعه إلى صوت قادم من الطرف الآخر للسوق. فعل الحرفيون مثله. منفاخ الحداد لا يلهث، الأفران لا تسخن والحديد لا يزهر. لم يسمعوا سوى هذا الصوت الذي يشبه مطرقة تدق الذهب على السندان. قال مولانا في نفسه أن الرقائق الذهبية أصبحت رفيعة للغاية. حينما تكون دقيقة أيضاً مثل الورقة، ستساعد، في ورشة عامل التذهيب، على تزيين مخطوطات الكتب العلمية، لقراءتها، التي نذز شبابه لها، وحتى تعمِّر طويلاً. كأسماك تعكس لمعانها في المياه وموزاييك متعدد الألوان. فجأة، شعر مولانا بالفرح. وفي أعماق قلبه، غمرت النوستالجيا قلبه إزاء شمس الذي غرزه في كتبه كي يدفعه إلى محيط العشق. لم يزل الألم غضاً، وبقدر ما مرت أعوام وأعوام إلاَّ أن الجرح ظل مفتوحاً. واضعاً يده على ياقة جبته، أغلق

عينيه، شعر بنفسه وحيداً، ضائعاً، وقد تخلّى عنه الجميع، كدرويش جَوَّال يغمره برد السهوب القارس. ثم استسلم للشوق الذي يسكنه. سقطت رأسه على كتفه الأيمن وأنشأ يدور حول نفسه في بطء، ثم تدريجياً بسرعة، على ايقاع دقات المطرقة القادم من ورشة الصائغ. بينما كان يدور حول نفسه، خفت النوستالجيا التي تستوحي شمس وانفتح قلبه. تتسارع ضربات المطرقة ورقائق الذهب ترقق على السندان. بينما يراه يدور حول نفسه، أمر صلاح الدين، المعلم الصائغ، المشهور بورعه، صبيانه بأن يدقوا أسرع فأسرع. قفز من حانوته ودار حول نفسه، هو الآخر. مولانا، الحزين عشقاً، والصائغ، راحا يدوروان حول نفسيهما. سحقت الضربات رقائق الذهب، غير أن الصائغ صاح في صبيانه طالباً أن يسرعوا الايقاع. من يعرف إنْ كان مولانا كان يتمتم في نفسه بكلمات الدرويش يونس، ناشر مذهب معلمه طابطوك، الذي قال لمولانا، في لقاء : «كتابك المثنوي طويل. لو كنت محلك، لكتبت فقط: «خُلقت من لحم وعظام حتى أظهر أينما كنت»؟ اذ أن مولانا :

وجدت الصديق الأصيل
حتى سُلبت روحي
عرفت الخسارة والمنفعة
حتى نُهب حانوتي.

وبينما تطير رقائق الذهب في عظمة وقد عاثت الفوضى جوانب الحانوت، استسلم الصائغ للهيجان. يدور رفقة مولانا، رغم عمره المتقدم، تاركاً خلفه رتابة البازار المألوفة. نبت له جناحان، وحلّق بين النجوم. بعد هذا اللقاء،

أصبح الصائغ صلاح الدين واحداً من مريدي مولانا. لم يتركه للحظة حتى ساعة الوفاة. ومذ ذاك، عُرف باسم زرقوب، وأصبح بصورة ما مرآة قلب مولانا. في هذا اللمعان، تتبدى صورته جميلة، أكثر واقعية وأكثر حميمية. لم يكتفِ بأن أنساه شمس، وإنما ساعد مولانا على استلهام «مثنويه».

***

في عام 1249، خلال الاحتلال المغولي الذي قلقل أركان الدولة السلجوقية، نشأت السيما، الرقصة الطقسية، أمام ورشة الصائغ. لا تزال موجودة حتى اليوم. وفي كل دورة يبتعد الدراويش رويداً رويداً عن هذه الأرض مقتربين من «الواحد». بينما تحترق الشموع في الشمعدان الكبير، يذوبون ويسيلون في حالة من الجذب الجميل. باستعارة كلمات مولانا:

إنهم في الشوك، لكنهم الوردة

إنهم محبوسون، لكنهم الخمر

إنهم في الوحل، لكنهم القلب

إنهم في الليل، ولكنهم الصباح.

مع نداء الشيخ تنتهي الرقصة. يغادر الدراويش الساحة، مثلما أتوا. يدخلون إلى غرفهم أو إلى مزرعة الورد المجاورة. بعد ساعة الجذب تلك، ليس لديهم الرغبة في ولوج المطبخ! من الرائع أن نراهم يختفون هكذا رفقة شيخهم. ألم يغب شمس، «السر الإلهي»، في ليلة منيرة كتلك، مثلما تغيب الشمس دون أن تترك أثراً خلفها؟

مكثتُ متجمداً أمام الصومعة. لم تكن لدي الرغبة في العودة إلى الفندق.

في البعيد، كانت الكلاب تعوي. ومن الناحية الأخرى للشارع، سمعت نعيب بومة، قادماً من ساحة الثلاثة. في نفس الوقت يتوقف خرير المياه وتغرق الساحة في صمت غريب. فقدت تصور الزمن. لاصقاً وجهي في النافذة ذات القضبان الحديدية، ظللتُ ساكناً. تدريجياً، تزداد النداوة الليلية للسهوب وتهبط العتمة على القباب. تبدى لي أن القمر اختفى خلف سحابة. في المكان الذي كنت موجوداً بين أرجائه، لم أستطع رؤية الضريح. ولكن، حسب اعتقاد المولوية، من الممكن أن يظهر شمس في أيّ لحظة من فتحة الباب الذي يُشرع على مكة، بوجهه النضر تحت تاجه، قلنسوته المخروطية المصنوعة من اللبد الأبيض، ونظراته المتأججة. وكما جذب مولانا، جذبني أيضاً إلى عالمه، في أعماق محيطه. لا، لست خائفاً. على العكس، ومثل مولانا، احترقتُ في ملاحقته عبر السهوب والصحاري، حتى دمشق وحتى تبريز أيضاً، وفي اختراق سره. ولكن، كما المفتون، ظللت ملتصقاً بالقضبان الحديدية للنافذة، لا أستطيع أن أنهض ولا أن أتحرك. وحيداً، مستغرقاً في أحلامي، أستطيع فقط أن أتخيل هذا الزمن البعيد، على ضوء القمر... أتخيل الشيخ يخرج من مخبأه، يتجه نحوي، يقترب من خلفي ويضع يده الطاهرة على كتفي. حينما استدرت، لم أر أحداً! ربما ـ من يعرف؟ ـ هل يبعث الي بعلامة من العالم المحجوب ؟ فجأة، غمر النور الساحة كلها. اعتقدت أن نور القمر يتضخم، وانخطف بصري. تخيلت أنني أرى دُرويشاً بلحية بيضاء يقترب من القضبان الحديدية. وجهه يشع نوراً، يثير العمى كما الشمس. اقتضى الأمر أن أغلق عيني لثوان. حينما فتحتهما، لم يكن هناك أحد. الساحة، في نور القمر، خالية. كان أمامي، فقط قميص أحد الدراويش الفضفاض منشوراً على حجر.

ارتجفتُ لما رأيته ملوثاً بالدم. ثم اختفى بدوره.

ولكن من هو هذا الشمس؟ اسمه ممتزج بكثير من الأساطير. كيف أن هذا الدرويش الغامض، الذي تُحكى عنه الكثير من الأساطير كما الكثير من الأكاذيب، اختبر مثل هذا التأثير على مولانا وألهمه أجمل قصائد «الديوان الكبير»(4) ؟

حسب المراجع القديمة، ولد شمس في تبريز وأصبح شاعراً جوالاً متقشفاً، وعلى مدى رحلاته كان يقطن خان القوافل، مما جعله يستحق الاسم الذي أطلق عليه (شمس الطائر). إذا اعتقدنا في «المقالات»، الكتاب الوحيد الذي بقي لنا منه، فإنه حقق بعض المعجزات وكان شيخاً ميّالاً للجذب الفجائي. نعرف القليل عن حياته، التي تحفظ أسراره. يقول، مثلا، في «المقالات» :

كان لدي شيخاً في تبريز يدعى أبا بكر. يحيا على جَدْل السلال. بفضله، اختبرت تأثيري على الكثير من الأقاليم. بيد أن بي شيئاً لا يراه شيخي. من جهة أخرى، لم يره أحد. ومع ذلك، رآه مولانا، سيدي.

عاش شمس في قونية خلال السنوات التي فصلت بين كارثتين في التاريخ السلجوقي. بين موت علاء الدين كيكوباد، أعظم سلاطين هذه الأسرة (1237)، وهزيمة كوزداغ (1243)، التي فتحت الباب للسيطرة المغولية. «ليتمم الله نعمته، وصل شمس تبريزي ذات صباح من صباحات اليوم السادس والعشرين من قمر جمادي الآخر من عام 642 هجري»،كما ذكر مولانا. منذ وصوله، اقترح على مولانا، الذي كسب تقدير ومحبة الناس وهو ينشر تعاليمه، أن يعتكف في غرفته وأن يدرك الحقيقة، ليس عبر المعرفة، وإنما

عبر العشق. حكى افلاقي لقاء هذين المحيطين :

وزّع درسه في مدرسة كرتاي، التي كانت تعتبر آنذاك أحد أكبر دور الثقافة. سأل أحد التلاميذ معلمه عن وجود النقطة المركزية. قال مولانا أن النقطة المركزية توجد في طرف الرواق وأن نقطة العشاق المركزية تقبع في قلب المعشوق ، ثم هبط من كرسيه، مضى أمام الوزراء وكبار الموظفين الذين يسمعونه والجالسين في الصف الأول إلى جانب شمس تبريز، الجالس في الصف الأخير بين أفراد الشعب العاديين. ولم يفترق العاشقان. ولكن الاغتياب زاد وتحت ضغط المريدين الذين أصبحوا لا يرون مولانا كثيراً وحرموا من نقاشاته، انتهى شمس إلى مغادرة قونية. أمر مولانا حسام الدين جلبي أن يكتب هذه الكلمات :

«جوهر الأرواح، سر المكان حيث نضع الشمعدان، سر الزجاج والشمعدان، نور الله فيمن جاؤوا من قبل ومن سيأتون من بعد، أن يمنحه الله عمراً مديداً ويشمله بعطفه، رحل يوم الخميس 21 من قمر شوال 643.»

في التقاليد البكتاشية، هناك الكثير من الأساطير التي تحيط بشمس. تروي ولايتنامة لقاءه الأول بمولانا بطريقة مجازية وأكثر إمتاعاً من شهادة افلاقي. حسب هذا النص، كان شيخ تبريز ولياً كبيراً. وكان الحاج بكتاش قد أرسله إلى قونية، بناءاً على طلب مولانا. ومنذ قدومه، عالج سلطان ولد، الضرير، الأكتع والمقعد. ولكن يذكر كثير من الأسباب التي أكدت على عظمة معشوق مولانا. ذات يوم، في مدرسة كرتاي، بينما كان مولانا ينشر تعاليمه، حقق معجزةمعروفة على نطاق واسع كاشفاً عن أن العشق مهم أيضاً كالمعرفة، على السطح الحميمي كما في العالم الخارجي. في الواقع، كانت هناك سنوات عدة

تفصل بين تأسيس مدرسة كرتاي وقدوم شمس إلى قونية، ولكنها ذات أهمية لا تذكر. تدعونا روح الأسطورة، إلى تخيل مولانا يدرّس في هذه المدرسة، إلى عرض اللقاء الأول بين هذين «المحيطين» تحت قبة هذه المدرسة. لأن كرتاي إحدى الأبنية التي شيدها أحد المعماريين السلاجقة والتي لم تزل قائمة حتى اليوم. الآجر المزخرف بالمينا، تركيب القطع الخزفية والأحجار المخرمة، الأبواب الرخامية الثقيلة، خطوط مع شرفات مقوسة ومثلثات كروية الشكل مبنية بين الأقواس التي تقام عليها القبة، قطع الخزف الزرقاء ـ الخضراء وكرزية اللون لم تقاوم، للأسف ، غضب الزمن وتفتتت، بيد أنها لم تزل تثير الانبهار. «لما ندخل، نلاحظ القبة السماوية المصغرة، الزرقاء، بالنجوم، والمجرة وقوس قزح»، كتب ابراهيم خاكي قونيالي[5].

تخيلوا التلاميذ المبتدئين وهم ينصتون إلى مولانا، متجمعين حول الحوض. الشيخ، متأملاً القرآن الموضوع على حامل خشبي أمامه، يشرح المعنى العميق لإحدى الآيات. فجأة، يدخل درويش أشعث، في أسمال، قدماه ملطختان بالوحل، إلى الساحة، يقترب من مولانا ويقعى أمام الحامل الخشبي. « عندما وصل شمس تبريزي إلى قونية كان مولانا يجلس بالقرب من نافورة وقد وضع كتبه بجانبه. أشار إليها شمس وسأل: ما هذه؟ وأجاب مولانا: هذه كلمات. لماذا أنت مهتم بها؟ وسحب شمس الكتب في حركة مفاجئة وألقي بها في مياه النافورة. وسأله مولانا ربما بجزع : ماذا فعلت؟ في بعض من هذه الكتب كان ثمة مخطوطات مهمة ورثتها عن والدي ولايمكن أن توجد في موضع آخر... وللمرة الثانية يفاجيء شمس... مولانا، حيث مد يده إلى الماء وأخرج الكتب واحداً واحداً دون أن يصاب أحدها بالبلل.

و«المحيطان»، كأس خمر في يد كل منهما، يقومان بالرقصة الطقسية، مرتكنين على أصوات الخانندة والساز. تدور القبة على ايقاعهما وضياء النجوم، المنعكسة على قطع الخزف، والهابطة من السماء في الحوض.

شمس، كما نعرف، فصيح. روحاني ومتمرد في آن معاً. يعمل على تعميق معرفته ـ الايمانية، كما هو مفهوم ـ بالجذب. أجاب شيخاً يقول أنه ينظر إلى النجوم عبر الحوض، كي يرى جمال الله: «هل أنت مصاب بدمل في الرقبة؟ من الأفضل أن ترفع الرأس وتنظر إلى صفحة السماء!». لا يدين بأي فضل للمدرسة ولا للتكايا. كان خان القوافل، حيث يتوقف عنده المسافرون الأبديون، مأواه الحقيقي. سلطان ولد، في «الكتاب الأخير»، وفي قصيدته الأخيرة، يسرد أن مولانا الذي كان، قبل أن يلقى شمس، يقرأ حتى الفجر على نور شمعة، وقع في جاذبيته وتغير كلياً بعد قدومه :

ذات يوم جميل قدم رجل القلب، أمير حقيقي، ذات كاملة. كان الناس يسمونه شمس تبريز. ولكنه كان لدى المستبصرين نور الأنوار، السر الإلهي... معشوق العالم، الولي الذي يحبه الله. حينما قابل مولانا شغف كل منهما بالآخر. أعجب مولانا بوجهه، جماله، خضوعه لله، عينيه المتوقدتين، نقاوته الطبيعية، طباعه البشوشة، فمه الشبيه بجوهرة محملة بالأسرار التي توزع كلمات السلام على الذوات الحرة. الله، وقد أراده له، أخفاه عن أعين الناس لئلا يراه أحد منهم. هام مولانا به حباً كمجنون، كما في الحكاية، يحترق بليلى. بعيداً عنه، كان حائراً. إذا لم يستطع رؤيته، تأمل وجهه، يخور، لا ينفصلان كما الليل والنهار، لا يحتمل أيهما غياب الآخر. كان مولانا سمكة تحيا في مياهه، روحاً وقلباً، كان كعبده.

هكذا ذكر عبد الباقي غولبيناري، الذي عرّفنا على على الكثير عن مولانا وشمس في آن واحد، بأسلوبه الفذ، العلاقة بين هذين الوليين اللذين يرقدان اليوم في قونية في ضريحين[6] يبعد كل منهما عن الآخر :

إنه، شمس مضطرمة، حارقة، تحجبها سحابة. محترقاً، مفنياً، ناشراً نوره، يبين مولانا للعالم. أنه بحر ثائر، كبير ومتعذر سبر أغواره، ذو أمواج مزبدة. هائجاً، ثائراً، منح مولانا، هذه الجوهرة النفيسة، لهذه الضفة.

في «خمس مدن»، لم يمنع أحمد حمدي تانبينار، مؤلف أحد النصوص المبتكرة والتي لم يُكتب مثلها من قبل عن قونية، من أن يذكر شخصية شمس الغامضة :

بلا مراء، تجذب شخصيته كما العاشق. في نقاشاته، وجهاً لوجه مع مولانا، كانت له ملاحظات مختلفة عما ذكرته السير. ربما لم يقل شيئاً. يكفي وجوده، نظراته وصمته أن يملأ الفراغ. بدءاً من اسمه شمس ـ اذ أن هذا الاسم كان موافقاً لذوق العصر، كان محل نزاع ـ، كل ما يلمسه، ومن ضمنه موته، غامض وملغز.

حينما غادر شمس قونية، لم يحتمل مولانا غيابه. ذاكراً آلام الفراق، كتب لأجله قصائده الصادقة. تبعه، على الدوام، بفكره. انتهى بأن أرسل ابنه سلطان ولد ـ حسب الأسطورة، وخضع هو الآخر أيضاً له ـ وتوفق إلى أن يعود به إلى قونية :

شمسي، قمري عادا
عيني، أذني، عادا
جسدي الفضي عاد

معدني، ذهبي عادا

نشوة رأسي عادت

نور عيني عاد (...)

ندائي في الرحلة عاد

جسدي الفضي الجميل

دخل فجأة من بابي (...)

يجب أن أشرب الخمر، الخمر

يجب أن تلقي رأسي بوميضها،

اذ أن اللحظة أزفت.

أريد أن أكون طائراً وأطير

ذراعي، جناحي عادا

العالم تزين بالأنوار

العالم كما الأصباح

أزف الوقت كي يصبح

أزف الوقت كي يزأر

أسَدي الجَسور عاد.

وأنشأ الأسدان يزآران في ألفة. غادرا اعتكافهما، غطسا في بحر العشق وفي جذب الرقصة المقدسة، واضعين نهاية لتوبة مريدي مولانا. كان شمس هدف مؤامرة يحيكها علاء الدين جلبي، ابن مولانا، وسقط في شرك ينتظره بساحة الصومعة. وقتذاك، لم يكن هذا الحوض الذي أراه قبالتي، ولا هذه المياه التي تنساب في نور القمر موجودين هنا. وكما هو معروف، ولا حتى هذه القبة

المزينة بقطع الخزف الزرقاء التي أميزها بالكاد في العتمة. كان مولانا لم يزل في صحة جيدة. غير أن والده، بهاء الدين ولد، «سلطان العلماء»، وعائلته تركا مدينة بلخ، من أعمال خراسان، للاقامة في قونية، والضريح والصومعة أقيما في مزرعة ورد منحها له علاء الدين كيكوباد. وهكذا كان شمس يتناقش مع مولانا في غرفة من غرف هذه الصومعة لما رجاه علاء الدين جلبي بأن يخرج. ربما كان عاشقاً لكيميا خاتون، زوج الشيخ والابنة المتبناة من قبل مولانا، على الأقل لم يرد الانتقام من هذا المتطفل الذي أفقد والده الصواب. قال الشيخ لمولانا: «ينادبني لموتي». سادت لحظة صمت. أتخيل أن الصديقين يتبادلان النظرات. بالتأكيد، كانا متقابلين، ولكن مذ ذاك كانا ينظران إلى الكون بأعين روحيهما، واعتادا الانصات إلى صخب الطبيعة بآذان روحيهما. اغتيابات قبيحة تمتزج بهذه الأصوات المتناغمة :

يقول العدو أشياء عبثية

تسمعها أذن روحي

أشياء قبيحة تحاك في النواحي

تراها عين روحي

يدفع كلبه نحوي

يعضني الكلب في ساقي

أتألم، أتألم بقوة

لست كلباً، لن أعضه أبداً

سأعض شفتي.

هكذا تشكّى مولانا في قصيدة له. ساد صمت مخيف أرجاء الصومعة. في الخارج، على وجه الأرجح، كانت أشجار السرو تدمدم بمشقة، أو ربما كانت تبكي وكانا يسمعان صوت قطراتها. نعم، هو ذاك، المطر يتساقط بطيئاً، «بالكاد مسموع، كصوت المتآمر، كقدم المارق العارية التي تركض في الليل على الأرض الرطبة».

سمعت أذن الشيخ هذه الخطوات في الساحة. بعد وقفة طويلة، همس مولانا بهذا الآية القرآنية : «ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين» (الأعراف، 54). خرج شمس. الظلال، في العتمة، تضربه بقبضاتها وتلقي بجثته إلى البئر.

انتظر مولانا شمساً بلا جدوى لكي يستعيد النقاش المبتور معه. مضت دقائق، ساعات، شهور، سنوات. مر صيف، فخريف، ولحقهما الشتاء فالربيع، ولم يعد. أخفوا موته طويلاً. لم يزل مولانا يأمل عودة رفيقه الأثير في يوم من الأيام ولا يتركه ينتظر. بحث عن سلوته في الشعر، الموسيقى والرقص. ربما، كما بينت احدى هذه القصائد، تخيل ما جرى، غير أنه رفض تصديقه.

أعرني أذنك، اسمعني
هو ذا يقوله قائد الحرس :
رجل القلب اختفى في هذه
الضاحية
وجدنا أثره على الطريق

هناك، كما قال، أثار واضحة

وقميص ملطخ بالدم (...)

دم العشاق يبقى طويلاً هكذا

دوماً ندياً، دوماً فاتراً

(...)

أنت أيضاً، في يوم من الأيام، سيقتلونك كذلك

ستدخل إلى الحياة الأبدية

وتكون لك روح الشهيد أيضاً

السلام عليك، يا تبريز !

وفي قصيدة أخرى :

إذا رأيت الناس مجتمعين، أيها المنادي،

صح بلا توقف:

أيها الناس الطيبون هل جعلتم رجلاً يفر (...) ؟

يجب أن يعرفونه، احملْ إلي شيئاً من

أخباره، أيها المنادي

أن يأتي أحد الي يعلمني

ما جرى له

أسلمت روحي، أيها المنادي، إنها

متجهة نحوه

منحت روحي وسوف تلقاه.

هكذا صاح. حتى حين التقى بالصائغ صلاح الدين، كان يلقى الناس الذين يأتونه بأخبار عن شمس ببشاشة. حينما يقال له أنها كاذبة، يجيبهم : «منحت عمامتي وملابسي لأجل خبر زائف، ولأجل خبر صادق، أمنح روحي».

* * *

في الغد، اخترقتُ ساحة الصومعة رفقة جمع غفير من السياح. حلَّت الشمس المحرقة محل نور القمر وأنهت رؤاي الليلية. زرتُ أولاً غرف الدراويش. اعتقدنا أننا في محل بقالة. مشجعين، بلا ريب، من قبل البلدية المزدهرة، يأخذ الباعة الجوالون نقوداً من هؤلاء القادمين من أركان العالم الأربعة مقابل بضاعة زهيدة : نشرات تشرح عقيدة المولوية، قصعات، آنية من الخزف وأسقاط أخرى. وددتُ أن أفعل كما المسيح، أن أطرد هؤلاء التجار من المعبد. كان لمولانا الحق لما قال: «تطعم قونية عقرباً على إناء ذهبي». هذه الصومعة ليست متحفاً، إنها، فعلاً، سوق. أمضيت ساعات أمام الواجهات التي تعرض الأشياء التي تنتمي إلى الدراويش، محاولاً أن أتجنب هذه التجارة. إذ أن في هذه الواجهات يشعر المرء أن روح هذه التكايا لم تزل تخفق، وأن هذه الطوائف، طوائف الدراويش التي بعد أن زالت، أُهملت وأُغلقت من قبل الجمهورية. هي ذي أول مرة أذهب فيها إلى قونية، وكنت مفتوناً. أردت أن أفهم الموضوعات الرمزية لنظام المولوية الذي يعبر ربما عن مظهر مؤثر من مظاهر ثقافتنا القديمة، حاولتُ أن أبين لنفسي نمط الحياة.

لكي أتغلغل إلى عالم هذه الموضوعات، لا يكفي أبداً أن أعرف النسيج الاجتماعي للآناضول خلال العصور الوسطى، والأحداث التاريخية،

والاحتلال المغولي وأيام مجاعته والخراب الذي رافق الثورات الأولى التي أفضت إلى الانتقام النهائي. من اللازم أيضاً فهم لماذا غادر رجال هذا العصر تدريجياً الواقع اليومي كي يتجهوا نحو الصوفية. كيف، بدلاً من البحث عن السعادة على هذه الأرض التي رآها مولانا «عالم الفجور»، انجذبوا إلى الاتحاد بالخالق؟ من اللازم الاهتمام بدور الأولياء القادمين من خراسان الذين استقروا في هذه البقاع، مثل الحاج بكتاش المتحول إلى حمامة، معرفة حياتهم الاستثنائية التي حكتها السير لنا. على ضوء هذه الاعتبارات اختبرت الفؤوس التي تحمل اسم علي بالحروف العربية، التي كان الدراويش الجوالون يحملونها دفاعاً عن أنفسهم ضد الحيوانات البرية، القصابات المصنوعة من قرون الآيائل أو قرون الحملان، الوريقات التي كانوا يضعونها في مكانها المخصص قبل أن يعلنوا توبتهم، القصعات التي كانوا يعلقونها في رقابهم قبل أن يذهبوا يتسولون في الأسواق، كي ينتصروا على عجرفتهم ويؤدوا دور الذليل. قرب السراي ولدت المولوية، كما البكتاشية، لدى فلاحي الآناضول، تعلي من شأن التواضع، والصداقة، والأخوة والإحسان، وبحثت في هذه الفضائل عن طريق الوصول إلى الحقيقة. كأننا نسمع هذه الرباعية التي تنسب إلى مولانا، على الرغم من أنه لم ينظمها على الأرجح، كانت التكايا تؤسس ملاذاً للشعب، مكاناً للتسامح بلا معادل خلال هذا العصر:

تعال، تعال، أياً كنت

كافر، وثني أو مجوسي

صومعتنا ملاذ الأمل

تعال، حتَّى وإن كنت صياداً قاسي القلب.

هذه الأبيات منقوشة على الضريح. كما دونها ابراهيم خاكي قونيالي في «تاريخ قونية». هناك اثنان وثلاثون تابوتاً حجرياً، بالضبط، يتراصون في الداخل، بدون نظام محدد. في الواقع، يشبه الضريح إلى حد ما متحفاً لمدفن عائلي. كان تابوتا مولانا وابنه سلطان ولد، المصنوعين من خشب الجوز، منحوتين على الطراز السلجوقي، يتصدران محل الشرف، عند الرأس، عمامتان، ويحملان نقوشاً ومكسوان بشالين خضراوين غامقين من لاهور. مذهولاً، وقفت أمام نص أطرته السلطات العليا أمام التابوتين. في الواقع، الموتى ينفصلون عن الأحياء. في ذي الليلة، في حلمي، وبدون شك متأثراً بشمس، خلطت بين العالمين.

قال امره : «من يترك العالم الكاذب/ لا يملك شيئاً يقوله ولا يحمل جديداً». غير أنني وددت سماع صوت مولانا يرن تحت القبة. بالتأكيد، يتكلم اللغة الفارسية وهذه اللغة تتبدى لي أيضاً واضحة ورائعة كالتركية، ومع ذلك، الصوت كالمياه الرقراقة، يحملني على موجه. لنسمع :

نحن، نحن رحلنا،

حظ سعيد لمن بقوا

كل من يولد يفنى

مَن في السماء يعرفونه

كل حجر ملقى من سقف يسقط

اذا كنا أشراراً تُركنا هنا

خبثنا

اذا كنا أخياراً، احفظوا لنا ذكرى

طيبة

ان اعتقدت أنك الابن الوحيد للزمن

يوماً ما سترحل مثل كل من

رحلوا.

لم يكتف مولانا بالقول، كما يونس امره، الدرويش الجوال القادم إلى قونية: «حظ سعيد لمن بقوا !». لقد أكد أننا إذا غادرنا العالم، فإن الحياة تستمر :

أنظرْ إلى هذا الشلال من الرمال

لا يعرف وقفة ولا راحة

أنظرْ كأن عالماً يتهشم فجأة

وهو يلقي بأسس عالم جديد.

بعد ما يقرب من ربع قرن على وفاته، انهارت الامبراطورية السلجوقية الكبيرة. بينما عالم آخر يحتل مكانها. القصائد الغنائية للمنتصرين القدامى تبقى محفورة على أطلال قصورهم. لنشكر هؤلاء الرجال الذين أعادوا بناء هذه النقوش، وفكوا رموزها بجهد عظيم وأوصولنا إليها.

قونية - باريس 1997

الهوامش

1- رقصة السيما، الرقصة التي يقوم بها الدراويش وهذه الرقصة مستلهمة من التاريخ التركي والعادات والاعتقادات التركية. تمثل رقصة السيما رياضة روحية ورحلة للوصول إلى الكمال بطريقة الالتفاف حول الحقيقة الخالصة المجردة، وبعد الانتهاء من هذه الرحلة يجد نفسه من يقوم بها أنه وصل لمرحلة من الكمال الروحي. يتمثل ذلك في النضج وتقدير الحب والمساواة بين البشر، بغض النظر عن الطبقية والأعراق والأجناس. يحتفل الأتراك الصوفيون بهذه الرقصة و يقومون بها في ذكرى ميلاد مولانا جلال الدين الرومي الفيلسوف المتصوف. (المترجم)

2- حسام الدين جلبي، صديق ومريد جلال الدين الرومي، حفظ تراثه الروحي.

3- شمس الدين أحمد افلاقي ، أحد أول كُتّاب سيرة مولانا جلال الدين الرومي، من كتبه: «مناقب العارفين».

4- الديوان الكبير، أو ديوان شمس تبريزي الذي كتبه في موت صاحبه الأثير وملهمه في طريق التصوف والشعر. (المترجم)

5- إبراهيم خاكي قونيالي (1894 - 1984)، مؤلف كتاب «تاريخ قونية».

6- لشمس تبريز شيخ مولانا جلال الدين الرومي ثلاثة أضرحة، واحد في خوي بأذربيجان، وله ضريح في مدينة ملتان، و كذلك في قونية، حيث وجدت مؤخراً البئر التي أخفى علاء الدين جلبي فيها جثة شمس تبريز. (المترجم)

• نديم غورسيل •

سبعة دراويش

جغرافيّة الصوفيّة الأناضوليّة



يُمثّل هذا الاكتشاف للعالم الصوفي والشعري، الذي يُمكننا التعرف عليه عبر نصي الذي يتبدّى كرحلة ذات مرجعية وثائقية متماسكة ومتنوعة، نوعاً من الرؤية. وهكذا، وبتحرير انطباعاتي وددتُ أن أتقاسم مع القارئ شيئاً من الحساسية دون أن أُهمل الأبحاث التي عَرَفَت نجاحاً كبيراً في تركيا، وبالتحديد لدى قطاع كبير معنيٍّ بالنقاش الذي يجري حالياً حول التوفيقية العلوية-البكتاشية.

من مقدمة نديم غورسيل

للطبعة العربية

اختار غورسيل أن يحيى ببساطة الإيمان الشعبي، ما وراء كافة التضمينات السياسية، وركز بالتالي على أساطير الطريقتين المولوية والبكتاشية، اللتين أصبحتا منذ زمن طويل «زاهدتين» سياسياً. بدقة كبيرة، وصف على وجه الخصوص الأساطير الناشئة حول الدراويش العلويين، مما سمح بالتالي، ليس للقارئ الأوروبي فحسب، وانما لكثير من القراء الأتراك، الاقتراب من عالم غريب تماماً. خلف الحبكات السردية الكثيرة، المنسوجة بالأساطير والحكايات، وبدءاً من القرن السادس، اتضح أن دراويش مختلف الطرق ساهموا في انتشار الإسلام وسط مجتمعات يدين أغلبها بالمسيحية، بالاستيلاء سلمياً على الآناضول، إذ أن الفاتحين المسلمين لم يحققوها بحد السيف.

من مقدمة غرهاردت شفايتسر



ISBN 9957-09-514-5
9789957095147



تلفاكس 5522544 6 00962 ص.ب 950252 عمّان 11195 الأردن